قصص

# دفتر النائم

شريف صالح






# دفتر النائم

قصص



رئيس مجلس الإدارة

**ياســـــر رزق**

المدير العام

**عزت القمحــاوي**

## دفتر النائم

## شريف صالح

تصميم الغلاف

د. عبد الكريم محمود

الإخراج الفنى

خـــالد شـــوارب

لوحة الغلاف

فيروز الطويلة

إدارة التسويق

تليفاكس : ٢٥٧٩٥٨٩٦

email : thakafa.ad@gmail.com

FaceBook: thakafabookstores

الموزع الوحيد بالمملكة العربية السعودية

المكتبة العصرية : جدة - الرياض - أبها

٢٣١٧٩٧٥ * ٤٧٣٠٠٣٤ * ٦٧٣٠٦٥٨

**بطاقة فهرسة**

صالح شريف

دفتر النائم / شريف صالح

القاهرة : قطاع الثقافة ، ٢٠١٥

ص ؛ سم .

تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٨١٦٨١٣

١- القصص العربية

أ - العنوان

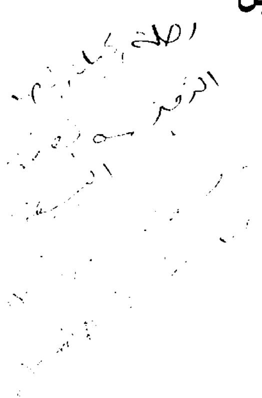
٨١٣

# شريف صالح

# دفتر النائم

قصص

# رحلة النهار والليل



خرجنا مع بزوغ الشمس أنا وأمي وأبي. لا نحمل أي شيء في أيدينا. سرنا في طريق ترابي ممتد، على جانبيه صف نخيل قصير إلى درجة أن السباطة المثقلة بالبلح كانت في متناول يدي تقريباً.

قلت لأبي: «أريد بلحة!» .

شدني من ذراعي وقال: «لما يحمر» .

كانت أمي صامتة وتداري وجهها عني.

في الطريق مررنا على بائع يقف وراء عربة خشبية ملونة بالأحمر والأصفر والأبيض والأزرق، وعلى قوائمها العلوية يعلق كُرات وبالونات بكل الألوان كانت تتأرجح في الهواء.

ـ «الله.. كرة.. كرة جميلة يا أمي!»

أخرج أبي نقوداً من جلبابه الواسع ووضعها في يدي.

ـ «اشتر لك واحدة وتعال بسرعة».

عدتُ فرحاً بالكرة لكن أبي عنفني بشدة، ولكزني في صدري وهو يسألني عن باقي الفلوس، لولا أمي جذبتني بعيداً عنه وضمتني إلى صدرها، دون أن تنظر في وجهي.

لم تدم بهجة امتلاك كرة سوى لحظة، ثم تلاشت بعد لكزة أبي. كتمت دموعي حتى لا يعنفني أكثر. واصلنا سيرنا، وفي الطريق تركت الكرة تنزلق خلسة من يدي.

من بعيد نظرت إلى الخلف فرأيتها تطير في الهواء بخفة إلى أن علقتْ بين جريد نخلة.

طول الرحلة لم يسأل عنها أبي!

إلى أن وصلنا إلى ساحة الألعاب. رأيت أطفالاً يلعبون بالكرة، وآخرون يدخلون إلى صناديق ملونة وسط تصفيق أصحابهم. كان لكل صندوق مروحة من أعلى تجعله يشبه الطائرة.. وكانت الصناديق تطير بالأولاد الصغار هنا وهناك ثم تهبط بطريقة مرحة وتستقر بعد دقائق على الأرض، مرة أخرى.

لعبة مسلية.. لو أمتلك صندوقاً وأطير به!

نهرني أبي عندما لمحني أمد يدي وأحاول لمس أحد الصناديق الطائرة.

بعد العصر بقليل غادرنا ساحة الألعاب أنا وأبي.

لم تكن أمي معنا ولا أعرف أين اختفت في الزحام! أبي لم يخبرني أين ذهبت! ربما تاهت منا أو ركبت أحد الصناديق وطارت. لا أعرف!

رآني أبي أتلفت حولي فأخبرني أن أمي قالت إنها ستلحق بنا عند النهر.

بعد أن كنت أسير بين أبي وأمي، مشيت وراء أبي متراجعاً خطوة أو خطوتين حتى لا يلكزني في صدري كلما أغضبه شيءٌ. كنتُ أرى جسده يزداد انحناء، وشعره يبيض ويتساقط إلى أن وقفنا أخيراً على حافة النهر.

خلعنا ملابسنا. وضمني أبي بين ذراعيه ـ لأول مرة ـ وهو يهبط بي في الماء. كان الماء دافئاً لكنني كنت مرعوباً وجسدي كله يرتعش وينتفض.

تركني أبي متشبثاً بجذع شجرة صفصاف وراح يسبح حولي، هنا وهناك. ثبّت عيني على حركات جسده حتى لا يغيب كما غابت أمي.

وجدتني دون أن أترك جذع الصفصافة أقلد حركاته.

أناس كثيرون نزلوا.. استحموا وذهبوا.. لكن أبي ظل في النهر.. كان يختفي عن عيني لدقائق ثم يظهر فجأة بالقرب مني.

بعد الغروب، رأيت أطفالاً يتشبثون مثلي بجذوع الأشجار وأعواد الغاب ونبات السُّمار. على بعد خطوتين كان أبي يمسك بطرف صفصافة ويغمض عينيه متعباً وهو يلهث.

لأول مرة أرى وجهه بوضوح، مغسولاً في الماء.

بعد اختفاء الشمس، مر على الشاطئ رجل يحمل مصباحاً في يده. أحسست بالاطمئنان لضوء المصباح واهتزازه وانعكاسه على سطح النهر. كلما ابتعد الضوء عنا كان قلبي ينقبض، ويزداد انقباضاً مع عتمة وسكون الماء.

لمَ لا أجرب أن أصل إلى القاع وأختبر عمق الماء؟!

مددت قدمي لأسفل دون أن أتخلى عن جذع الصفصافة، لكن القاع كان بعيداً جداً لا يمكن لقدمي أن تصل إليه وتلامسه.

رفعت رأسي فوق الماء مرة أخرى، ونظرت في اتجاه أبي.. لا أثر له!

صرخت في الليل:

«أبي»!

«أبيي»!

«أبيييييييييي»!

كان صدى صرختي يتردد مثل تموجات صغيرة ويتلاشى.. عيناي تتلفتان في ذعر يميناً ويساراً:

«أبيييييييييي»!

لا أثر لأبي بين الأجساد المتشبثة بجذوع الأشجار ونباتات الشاطئ.

# تووووت

كنتُ قطاراً.

أدفع رأسي بسرعة فائقة إلى الأمام ـ مثل «التوربيني» ـ فيجر خلفه كل جسدي الممتد. أحرك يدي ورجلي بطريقة آلية على طريقة قطارات البخار في الأفلام القديمة. كنتُ أصدر صوتاً منغماً من فمي إلى مؤخرتي .. صافرة طويلة تعلن دخولي المحطات:

«توووووووووووووووووووت»

أطلقها طويلة بكل قوة حتى وإن لم تظهر لي في الأفق، محطة.

على فترات معينة كنت أتوقف. ألتقط أنفاسي، فيهبط ركاب، ويصعد ركاب. ثم أمضي في طريقي:

«تووووت... توووووووت.. توووووووووت»

أطلقها صاخبة حادة عنيفة فتزلزل الأرض من تحتي.

في لحظة من تلك اللحظات قفزت قطتي البيضاء من النافذة ولم تعد. وبسبب السرعة الفائقة واندفاع الهواء عبر النوافذ طار أيضاً الدفتر الذي كنتُ أسجل فيه أحلامي. فقدته إلى الأبد!

وقبل دخول إحدى المحطات طار خاتم جدي المنقوش عليه رسمة أبي زيد

الهلالي.. كنت ورثته بعد وفاة الجد، ويومها شعرت أنني انتصرت على كل أعمامي.

«توووووووووووووووووت»

رغم أنني كنت أقف في مكاني في فترات معينة، لم يكن باستطاعتي أن أتوقف لألتقط كل تلك الأشياء التي سقطت مني في الطريق.

«تووووووووووووووووووت»

«توووووووووووووووووووووووت»

أطلقها أكثر طولاً.. فتقفز بي إلى الأمام بلا رحمة.. كل الكلام المحبوس في داخلي يندغم في هذا الصوت الرتيب المتكرر الممطوط:

«تووووووووووووووووووت»

أكثر ما آلمني أن الفتاة التي أحببتها وتواعدنا على اللقاء، وصلت متأخرة دقيقة واحدة إلى المحطة التي اتفقنا عليها بعد أن كنتُ قد غادرتها مُطلقاً صيحتي:

«تووووووووووووووووووووت»

لعل فتاتي مازالت جالسة في مكانها المعتاد تحت شجرة سرو.. على رصيف المحطة.. تنتظر مروري في زمن آخر.. ومن يدري ألاَّ تكون قطتي البيضاء أيضاً نائمة الآن في حجرها!

دقيقة.. دقيقة واحدة فقط بين وصولها ورحيلي!

أي قوة في هذا الكون كله قادرة أن تعيد تلك الدقيقة إلى الوراء أو أن تسحب رأسي المندفع بعنف إلى الأمام.. وتعيده إلى الخلف مرة أخرى؟!

من بعد هذه الدقيقة التي فرَّقت بيني وبين الفتاة التي أحببتها، لم تعد «توووووووت» التي أصدرها مثل «توووووووت» التي كنت أطلقها من قبل.

# كوخ ست الحُسْن

رأيتها من بعيد وهي ترش المياه على التراب الجاف أمام الكوخِ المطل على النيل. كان الكوخ مصنوعاً من أعواد الغاب ولحاء الأشجار، ومطلياً بطبقة جافة من الطين والتبن. أمامه باحة مسورة تظللها نباتات ست الحسن التي تسلقت الجدران، وكست الكوخ كله بأزهارها البنفسجية الصغيرة ولمحت بين الأزهار طائر أبي الحناء بصدره المحمر يقف ساكنًا.. وبالقرب منه خلية نحل، وكانت هناك نحلة تطن وتدور في الهواء.

خمنت أن الفتاة وحدها في الكوخ.

كنت أسير متعباً، أتصبب عرقاً. قلت لها:

× «اسقيني».

توقفت عن الكنس ونظرت إليّ.

تركت مقشة النخل من يدها ثم غابت في الداخل. كان هناك ريش ناعم كثير متناثر في أرضية الكوخ، وكان صوت محمد قنديل يغني «سماح يا أهل السماح.. لوم الهوى جارح». والريش الناعم يتطاير خفيفًا على إيقاع الأغنية.

ظلال أشجار الصفصاف بامتداد النهر والنسيم ورائحة التراب المبلول وغناء محمد قنديل.. كل هذا جعلني أشعر كأنني أقف على باب جنة الله.. أي جنة أجمل من هنا؟ وددت لو أنام إلى الأبد أمام الكوخ!

عادت الفتاة وفي يدها إبريق فضي مبلل. ناولتني الإبريق فشربت وتركت الماء يبلل فمي وصدري، وحين رفعت رأسي كي أشكرها رأيتها تبتسم وتتأملني بعينين خضراوين.

مضيتُ في طريقي مسافة لا أتذكرها بمحاذاة النيل الذي كان يجري هادئًا وكأنه لا يجري.. ثم وجدتني أعدو عائدًا نحو الكوخ، ورأتني الفتاة من الكوة المفتوحة قادمًا نحوها.. فابتسمت.

ـ «توقعت عودتك».

كان الباب مواربًا فدخلت. وقفتْ أمامي، لا يبدو عليها الخوف أو الضيق من دخولي دون استئذان. ابتسامتها اتسعت أكثر.

ـ «اسقيني».

مدت يدها ببساطة في قعر الزير وملأت الإبريق ثم فكّته من السلسلة المعدنية.

ارتويت وتركت ما تبقى من الماء يفيض على جسدي.

ـ «اسقيني ثانية».

تناولت مني الإبريق، وملأته لي أكثر من مرة، حتى كاد وجهها يلامس وجهي ورأيت ذلك الزغب الأشقر الخفيف على حواف شفتيها. استدارت مبتعدة وهي تفك المنديل عن شعرها الذهبي الغزير. التفتت وسألتني:

ـ «أليس معك حقيبة؟»

قبل أن أجيب ناولتني الإبريق مرة أخرى وأشارت إليّ أن أسقي نبتة «ست الحسن» هناك.. سرتُ حسبما أشارت وقطعت مسافة ليست طويلة ولا قصيرة إلى أن ظهرت لي درجات سلالم خرسانية.. كأنها مدخل بيت مهجور من زمن بعيد.. ومن ثقب بين تلك الدرجات الخرسانية تمددت نبتة صغيرة لا تزيد عن ثلاثة أشبار. كان ورقها الأخضر الذي يشبه ورق الملوخية ذابلاً ومغبرًا، فرحت أصب الماء أحممها وأغسل أعوادها الغضة.

لا أدري كم مرة كنت أعود إلى الفتاة فتملأ الكوز بابتسامة خفيفة. كنت أمضي إلى النبتة وأعاود رش المياه من أعلى.. ومن أسفل.. في المرة الأولى انتبهت إلى صوت أسمهان تغني في الراديو الصغير: «نادي وردك يا خولي.. اوعى يجرحك شوكه واسهر عليه».. وفي المرة الثانية كان عبد الوهاب يغني وقبل أن أنتبه إلى الأغنية خفضت الفتاة صوت الراديو وقالت لي: لو أزهرت النبتة.. يمكننا أن نبني كوخًا جديدًا هناك».

وكلما خرجت ليلًا كانت تترك لي شمعة صغيرة على مدخل الكوخ كي لا أضل الطريق أثناء عودتي.. واصلت ري النبتة مرات ومرات إلى أن قالت لي: إنها متعبة ولم تعد تقوى على ملء الإبريق لي.

كانت مستلقية على السرير. ثم التفتت نحوي وسألتني وهي تسعل:

× «هل أزهرت النبتة؟»

× «ما زلت أرويها».

سعلت ثم اعتدلت في فراشها، وهي تحدق فيّ:

× «شعرك شاب كثيرًا منذ رأيتك أول مرة!».

تطلعت من كوة الكوخ.. إلى الخارج.. فرأيت نفسي شابًا قادمًا من بعيد.

# الخالة اليابانية

عاد العم الطائش بعد غياب سنوات وهو يجر في يده زوجته اليابانية، فتندرت نساء العائلة على قصر قامتها، وحسدنها على نشاطها، فهي كانت نشيطة كالنحلة تستيقظ قبلهن وتنتهي من الواجبات المنزلية بسرعة وخفة ثم تجلس وتتزين. كانت لا تتكلم وهي تعمل ولا تتكلم وهي تتزين.. كأنها خرساء! فقط تأكل الأرز الأبيض والشيكولاتة وتتجنب الأطفال لعمي.. وبعدما تتخفف من بطنها المكورة تدور في البيت مثل فراشة بملابسها الملونة.. فتثير هنا وهناك موجة عطرة.

رجال العائلة أيضاً استغربوا لأنها لم تذهب في يوم من الأيام إلى الطبيب، وقالت الجدة إنها امرأة ساحرة مسكونة بالشيطان. تعمل مثل الساعة لا تبكي ولا تتذمر ولا تتكلم! كانت الجدة تراقبها من بعيد بعين حذرة، وكنا نحن أطفال العائلة نحب حركاتها الخفيفة وألوانها الزاهية كأنها طفلة مثلنا.

وبعد أذان المغرب سمعت امرأة عمي الأكبر تقول لجدتي إنها عرفت اسم الساحر الذي تذهب إليه الخالة اليابانية.. هكذا كنا نناديها.. لوت جدتي شفتيها وقالت: إنها منذ مجيئها وهي سبب الشقاء في عائلتنا.. لم أصدقِ جدتي ولا امرأة عمي التي انتبهت إلى أنني سمعت كلامهما فتوددت إلي

وطلبت مني أن أسرق ثوب «الكيمونو» الذي جاءت به الخالة اليابانية من بلدها. فقد كان لديها «كيمونو» أبيض رائع.. ومحفور به تطريزات زهرية ووردية غائرة.

× هل «الكيمونو» الذي احتفظ بجماله رغم مرور السنين له علاقة بشقاء عائلتنا كما قالت جدتي؟!

في صباح اليوم التالي نادت عليَّ امرأة عمي:

× «نفذت المطلوب؟»

× «تريدين أن أسرقه؟»

هزت رأسها.

× «لماذا أسرق «كيمونو» الخالة اليابانية وهي لم تضايقني في أي يوم؟!

لكزتني امرأة عمي وهددتني بأنها سوف تكوي بلبلي بملعقة حامية إذا لم أفعل.

دخلت متلصصاً غرفة نوم الخالة اليابانية.. لا أدري أين كان عمي.. فمنذ أن جلبها إلى البيت، ونحن تقريباً لا نراه! شعرت بأقدام زوجة عمي الكبير، وجدَّتي، وهما تتسللان من خلفي.

وقفنا نحن الثلاثة حول فراش الخالة اليابانية ورأيت «الكيمونو» مفروداً بعناية بطول السرير. حملته الجدة وامرأة العم بلهفة ثم أسرعتا بمغادرة الغرفة، ولم تمر سوى دقائق حتى سمع كل من في البيت صرخة مدوية وصوت ارتطام في الشارع، فهرولت العائلة كلها في اتجاه الصوت.

كانت الجدة أول من هبط إلى الشارع، اقتربت بعكازها وقالت في نبرة شامتة:

× «ألم أقل لكم؟! ملعونة ومسكونة بالشيطان.. لم تصدقوا! الملعونة انتحرت!»

تطلعتُ بصعوبة من بين سيقان وأرجل أفراد العائلة ورأيت الخالة اليابانية ممددة وسط الشارع، وخيط دم رقيق يسيل على طرف فمها الصغير وقد زمَّت شفتيها القرمزتين بقوة. ما لم أتوقعه أن جسدها المسجى كان ملفوفاً بكيموفو أبيض.

# قصر الأموات

هبطنا من الباص السياحي أمام بوابة عملاقة. كانت منقوشة بزخارف عتيقة وتواريخ وأسماء باللغة الفارسية.

أشار الدليل: هذا هو القصر!

ثم مضى أمامنا بخفة جرو.

تأملت طريق الأشجار الصاعد أمامنا. كانت أشجار عملاقة طويلة تتعانق من أعلى لتشكل قوساً ممتداً بالكاد تتسلل منه أشعة الشمس في الصباح. تبدو الأشجار التي لا أعرف اسمها، كأنها في هذا العناق منذ عشرات السنين. غير مبالية بآلاف السياح الذين جاءوا وذهبوا، ومروا أسفل منها.

كان القصر الأبيض في نهاية طريق فرعي ناحية اليمين. وكنتُ أشعر برهبة غير مبررة. خوف غامض ينتابني من زيارة قصور الأموات هذه. ربما لهذا السبب يعتاد السياح أن يزوروها في أفواج صغيرة. يحتمون ببعضهم البعض. ربما أبالغ قليلاً، فالناس كانوا يدخلون ويخرجون أمامنا بألفة، وهم يلتقطون لأنفسهم الصور التذكارية وابتسامة كبيرة تملأ وجوههم. معظمهم كانوا

مشغولين بتوثيق صور لأنفسهم داخل القصر وليس خارجه، وكأنهم يرغبون في الإيحاء بأنهم من سكانه الذين عاشوا فيه. لقطات على السلالم الرخامية العريضة بعروقها الصفراء الشبحية.. لقطات في البهو الرئيسي، وأخرى أسفل لوحة زيتية عملاقة لصورة برنسيسة شاحبة وحزينة، كانت تضع يدها على خدها.

من سيفكر في سبب حزنها أو حتى في مصير الرسام الذي أفنى الليالي في رسم ملامحها قبل أكثر من تسعين عاماً.. أو ما المكافأة التي قد تكون منحتها له مقابل رسم وجهها؟!

زملائي في الفوج السياحي انشغلوا هم أيضاً بالتقاط صور لبعضهم البعض بجوار رأس أسد ومنحوتة فارس برونزي فوق حصانه.. كانوا يخفون نصف وجوههم خلف الأواني الفضية أو يلتقطون انعكاس وجوههم على المرايا والألواح الزجاجية.. أحد الزملاء سأل الحارس الذي كان يجلس خارج الباب الرئيسي، إن كان يحق له الاسترخاء على تلك الأريكة لالتقاط صورة. لا أعرف لماذا كنت الوحيد بينهم الذي تجنب بشدة التقاط أي صورة له؟!

كنتُ أشعر بأطياف سكان القصر وهي تتحرك حولنا.. أنفاسهم.. أصواتهم.. ظلال أجسادهم وهي تسبقنا وتصعد السلالم إلى الطابق العلوي قبلنا.. أسمع همسهم وهم منزعجون من بلاهتنا وتلصصنا عليهم.. لوهلة لمحت البرنسيسة الشابة في لوحتها العملاقة وهي تبتسم وتغمز لي كأنها تغويني بالتقاط صورة بالقرب منها.

غادرت مسرعاً تحت وطأة دوخة خفيفة وانتظرت زملائي على مقعد في الحديقة المواجهة لباب القصر الرئيسي. كان الجو الخريفي قد انقلب فجأة إلى

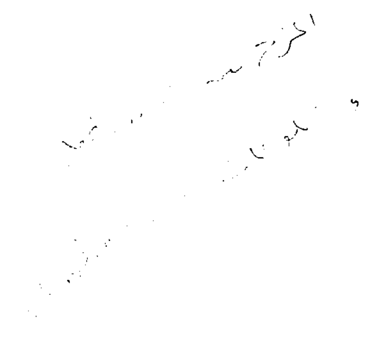
زخاتٍ من المطر فاحتميت بتعريشة أمام القصر، وعندما وصلوا إلي انتبهت أنني فقدت الزر الأوسط من الجاكت الذي أهدته لي أمي في عيد ميلادي. استأذنتهم وعدت للبحث عنه في ردهات القصر متتبعاً نفس الممرات التي سرت فيها. لابد أنه سقط مني أثناء جولتي في الداخل.

في هذه المرة دخلت مندفعاً وليس في رأسي سوى العثور على الزر واللحاق بالفوج، وكان الدليل يراقبني من بعيد ويستعجلني بإشارات يده. ما إن وضعت قدمي عند مدخل الردهة حتى شعرت بالرعب. لم يكن هناك أي زائر في القصر سواي. اختفى السياح جميعاً بكاميراتهم وضجيجهم وأحاديثهم التي تترك صدى مبتوراً في ممرات القصر.. لا أحد سواي هنا وسط الأطياف التي رأيتها أكثر وضوحاً عن ذي قبل. كانت تسير وتمارس حياتها الطبيعية دون أن تبالي بي. من يسكن في قصر مثل هذا لن يتخلى عنه بسهولة، حتى بعد الموت! رغم ذلك استجمعت شجاعتي. لا قوة على الأرض ستمنعني من العثور على الزر الذي فقدته.

جريت مسرعاً بين أكثر من ردهة، أمام المكتب الرئيسي وصالة الطعام والبهو الواسع وقاعة المناسبات والمكتب الرسمي لصاحب القصر. لكن الخوف الذي ضاعف نبضات قلبي كان يمنعني من رؤية الزر المفقود. وقبل أن أعود مرة أخرى في اتجاه المدخل الرئيسي رأيت البرنسيسة الشاحبة تغادر لوحتها الزيتية وتسير أمامي. وبألفة وبساطة مدت يدها الناعمة والتقطت لي الزر من جوار مزهرية عليها نقوش صينية. ثم التفتت نحوي وابتسمت.

وقفت مذهولاً وهي تقترب مني. خلعت الجاكت عني وبدأت في رتق الزر وهي واقفة أمامي. كانت تحرك أصابعها الرقيقة كخياطة متمرسة، قبل أن تجذب الخيط بجانب فمها وتقطعه.

بالألفة ذاتها التي نلتقط بها صورنا التذكارية في القصور العتيقة، ساعدتني البرنسيسة الحزينة في ارتداء الجاكت وناولتني برتقالة. ثم ابتسمت لي للمرة الأخيرة قبل أن تعود إلى اللوحة التي كانت تحمل توقيع الرسام الإيطالي فرانشيسكو هايز. ولا أدري لماذا ظللت أردد اسم فرانشيسكو هايز في سري!



# هروب جسدي

وأنا أشرب قهوة الصباح في البلكونة انتبهت أنني لم أرتد جسدي. لم أكن أرى يدي وهي تحمل فنجان القهوة، ولا هذا الظل الممتد إلى جواري! أين نسيته؟ ربما مازال نائماً في السرير كسولاً كعادته، أو أنني نسيته بعد الاستحمام معلقاً على المسمار وراء باب الحمام الصغير!

أو...

أو طبقة البخار الخفيفة أثناء الاستحمام حجبت رؤيته فهرب مني. تسلل من تحت المنشفة واختفى.

نهضت للبحث عنه في الأماكن التي اعتدت تركه فيها، في غرفة النوم.. في المطبخ والحمام.. على الأريكة التي أستلقي عليها عادة أمام التلفزيون. عندما عدت إلى البلكونة لمحته من وراء القضبان المقوسة وهو يسير في الشارع بانحناءته الخفيفة المعتادة.

«هذا هو جسدي! هذا هو!».

اندفعت على السلالم مسرعاً وراءه.. كي ألحق به قبل أن يهرب ويختفي إلى الأبد. لا أدري كيف شعر أنني خلفه واختفى.

وقفت أتلفت على ناصية الشارع وأبحث عنه بعيني وسط زحام المارة! من بعيد رأيته يخلع حذاءه ويجري حافياً تحت المطر الخفيف، ثم زاغ مني في شارع جانبي موحل بالطين، وكل الدكاكين فيه مغلقة. ليس في هذا الشارع الضيق سوى أنا وجسدي، وكنت أسمع ضحكاته الرنانة حتى بعدما اختفى ولم أعد أراه.

فتحت فتاة شرفتها فجأة في الطابق الأرضي في بيت مطلي بلون أزرق، وأمامه بستان ورد، فسألتها:

«رأيت جسدي؟».

هزت رأسها ونفت بسبابتها أن تكون رأته، ثم أغلقت الشرفة في وجهي وهي غاضبة.

ابتسامتها المرتبكة قبل أن تغلق الشرفة أوحت لي أنها متواطئة معه، وأن جسدي قد يكون مختبئاً مني الآن وراء شجرة الياسمين هذه.. ما الذي يمنعه أن يتسلق شرفة الفتاة ويختبئ أسفل سريرها؟!

كان جسدي دائماً مولعاً بلعبة الاختباء في أماكن لا أتوقعها، ثم يتركني أطارده حيثما ذهب. مرات كثيرة أوقعني في مشاكل لا حصر لها.. مرة بات إلى الصباح على مقهى في شارع فيصل يشرب الشاي باللبن.. ومرة ظل محبوسًا في حمام شقة جارتنا عندما وصل زوجها فجأة.. لا أدري ما الذي يرعبه ويجعله يفر مني بهذه الطريقة؟! لماذا لا يترك لي فرصة كاملة كي أرتديه؟ بعدها نستطيع أن نذهب نحن الاثنين حيث نشاء!

مرة بالكاد ارتديت الرِّجْل اليمنى ثم فر مسرعاً قبل أن أكمل ارتداء الرِّجْل اليسرى.. انطلق يطارد فتاة في أزقة بين السرايات إلى أن دخلتْ محل أبيها الجزار الذي انقض على الساطور وطارده بصحبة كلبه الدميم. وفي مرة

أخرى وبعد أن ارتديت نصف الرأس فقط، قفز جسدي من النافذة وغاب عني أسبوعاً كاملاً قضاه متسكعًا على شاطئ الإسكندرية.

لماذا يفر مني هكذا؟ هل يبحث عن شخص آخر يرتديه؟ يشعر أننا لا ننتمي إلى بعضنا البعض! لم يُخلق أحدنا للآخر! كأن خطأ ما أوقعنا في مصير مشترك.. صدفة قدرية جمعتنا هكذا بلا أي انسجام، ولا أحد منا يملك حق الاعتراض على الآخر!

غادرتُ زقاقاً مهجوراً مع اندفاع المطر، وكنت أسمع لهاثه يدوّي في أذني، كأنه يجري في مكان قريب حولي.

على شاطئ البحر في ذلك المقهى المزدحم بوجوه الغرباء رأيته يتطلع إليّ خلسة من وراء حافة الجريدة وهو يدخن الشيشة رغم أنه يعرف أنني لا أطيق رائحة الدخان.

وقفت في مكاني وابتعلت ريقي. زاد يقيني أنني لن أسترد جسدي أبداً طالما أطارده. لماذا لا أعود إلى شقتي وأترك له حرية القرار، إما أن يعود إليّ بمزاجه أو يهرب مني إلى الأبد.. يُريح ويرتاح؟!

خلعت ملابسي في الحمام الصغير، واستسلمت تحت مياه الدش الدافئة بعد الجري والتعب واللهاث تحت المطر. وبينما كانت عيناي مغمضتين بسبب رغوة الصابون شعرت به يتسلل إليّ متعباً. عاد هكذا من تلقاء نفسه وارتداني.. كانت لحظة امتنان بحضوره لم تدم أكثر من ثوان، فبمجرد أن جلست أشرب قهوتي في البلكونة رأيته يجري في الشارع لكنه هذه المرة تعلق بخيط بالونة حمراء طارت به إلى السماء.

# خطاب شكر للرواد الخمسة

طرقت الباب لم يرد أحد.

وجدته موارباً فدخلت بهدوء. سمعت أصواتهم تأتي من ناحية الصالة الرئيسية. كان البيت مكوناً من طابقين على طراز عربي ومزدحم بأثاث ضخم، ورائحة عتيقة. تشبه رائحة خميرة الخبز.

كان الخمسة في انتظاري. لا يقل فارق السن بيني وبين أصغرهم عن ثلاثين عاماً. خمسة مذيعين مخضرمين، جميعهم على المعاش الآن.

بعدما تناولنا غداءنا، صينية سمك في الفرن، بصلصة الطماطم والبصل وأرز صيادية، جلسنا في ركن مجاور لمائدة السفرة نشرب الشاي والقهوة.

أخرج زميلهم القصير البدين ورقة بيضاء وقلم حبر أنيق، ثم رفع نظارة القراءة المعلقة بسلسلة ذهبية في رقبته، وضبطها على عينيه وبدأ في تدوين ملاحظات. كان يتصرف بهدوء شديد.

وكانوا متفقين على كتابة خطاب شكر باسمهم جميعاً، بمناسبة تكريمهم في اليوبيل الذهبي لتأسيس التلفزيون.

نظر صاحب السالفين الطويلين نحوي نظرة مواربة، وكان هو من دعاني إلى هذا اللقاء.. قال إنه يريدني في أمر بالغ الأهمية وعزمني على أكلة السمك الشهية هذه. وكنت استغربت اتصاله لأننا لم نتواصل منذ خروجه على المعاش قبل خمس أو ست سنوات.

فجأة قهقه ضاحكاً وحمد الله؛ لأن صاحبهم «عبد العزيز» مات الخميس الماضي، و لو كان حيًّا لن يسمح لأحد غيره بقراءة خطاب الشكر! بدوا جميعاً ممتنين مثله لوفاة صاحبهم «عبد العزيز» قبل أيام قليلة من حفل التكريم.

اقترح زميلهم الأصلع، وهو نفسه المضيف وصاحب البيت، توجيه الشكر للملك غازي الذي سبق عصره وأسس التلفزيون، لكن زميلهم البدين المنهمك في تدوين الأفكار الرئيسية للخطاب اعترض لأن الملك الحالي لا يطيق سيرة جده أساساً، ولا يجب أن ننسى أن الحفل سيكون بحضوره وتحت رعايته.

أيضاً كان هناك اقتراح من زميلهم الرابع الكفيف والذي يرتدي نظارة سوداء، بضرورة ذكر أسماء مجموعة أخرى من الزملاء المؤسسين فارقوا الحياة في السنوات العشر الأخيرة منهم عبد العزيز.

اقتراح ذكر الزملاء الأموات كان مثار سخرية من معظمهم، لأن الخطاب بهذا الشكل سيبدو مرثية كئيبة لا تناسب أجواء الاحتفال، وقد يتضايق منه الملك فينصرف قبل موعد التكريم.. إضافة إلى أن مثل هذا النوع من المراثي العشوائية تتساوى فيه رؤوس النبلاء بالحقراء كما قال المضيف الأصلع قبل أن يضيف: تخيلوا.. نستذكر المرحوم فلان.. وفضل المرحوم فلان.. وندين جميعاً لاقتراح المرحوم علان.. معقول!

ضجوا بالضحك في اللحظة التي جاءت فيها الخادمة السمراء بصينية الحلوى. كانوا يختلسون النظر إلى ثدييها المكورين.. فتلمع أعينهم لمرأى الثديين

وهما يكادان يقفزان من فتحة فستانها كلما انحنت ووضعت طبق الحلوى أمام أحدهم.. وضعت أطباق الحلوى ثم عادت ودارت عليهم بأكواب الشاي. كانوا يشغلونها بأي شيء كي تعود وتنحني وسط دائرتهم.

ومن وراء الجميع مرت عجوز أجنبية، خمنت بسبب طولها الفارع أنها سويدية. مجرد تخمين لا دليل عليه! على الأرجح هي زوجة المضيف، الذي يبدو أكبر الحاضرين سناً. وإن كان تخمين أعمار هؤلاء العجائز أمرًا خادعًا جدًّا.

من بعيد، ابتسمت لنا العجوز السويدية بامتنان واطمأنت بعينيها على ترتيبات الضيافة. ثم عبرت الصالة إلى مكان ما في الخلف. خمنت أنها ستذهب للاسترخاء تحت الشمس في الحديقة وتقرأ مجلة نسائية أو تنشغل بتقليم أظافر رجليها.

أصغر الخمسة ـ حسب تخميني ـ كان أسمر الملامح ظل صامتاً معظم الوقت. بدا وجهه ضامراً بقسوة، كأنه يعاني من مرض فتاك. أخيراً تكلم واقترح عليهم قبل كتابة خطاب الشكر أن يقرأوا أولاً كتاب «الفتنة الكبرى» لطه حسين، و«لماذا أنا ملحد؟» لإسماعيل أدهم وكتابين آخرين لا أتذكرهما الآن.

كل ما أتذكره، أنها كلها كتب قديمة مر على صدورها أكثر من ستين أو سبعين سنة. شرح لهم أن قراءة هذه الكتب أفضل علاج للقضاء على الصراصير التي انتشرت هذه الأيام في الشوارع والصحف والقنوات التلفزيونية. ثم شد جسده بعصبية كأنه يخطب فيهم وقال: أقسم لكم أن قراءة «قلب الليل» أفضل من الجلوس على الكرسي في قاعة التشريفات خمس ساعات في انتظار وصول الملك، كي يتعطف علينا بدرع زجاجي وهو بالكاد ينظر إلينا.

هنا رفع البدين رأسه وتوقف عن تدوين الملاحظات وقال ساخرًا: فعلاً.. لا تنسوا.. الأمن الوطني لن يسمح لأحد بالذهاب إلى الحمام قبل أن يغادر الملك!

صاحب السالفين الطويلين قال دون أن يتخلى عن نبرته الساخرة: خمس ساعات؟! يخرب بيت شيطانك! ولو البروستاتا انفجرت!

قهقهوا.. وعاد العجوز الأسمر للكلام منفعلاً: من قال إننا نستحق التكريم أيها السادة؟ ماذا فعلنا للبلد؟! هه.. أخبروني! ماذا فعلنا؟ هل فعلنا أكثر مما يفعله أي قوّاد يؤدي عمله؟ انظروا إلى أحوالنا.. الملك الحفيد أسوأ من الملك الجد! والناس الآن أسوأ من الناس زمان.. والشوارع أسوأ من الشوارع أيام الاحتلال.. لو كنا نجحنا في إقناع الناس بأي فكرة لأصبح من حقنا التكريم.. انظروا حولكم.. كل الدول الآن مهووسة بالدجل والشعوذة.. أمريكا لا تختلف عن زامبيا.. وأنظمة قاتلة لا أكثر ولا أقل. هل تعتبرون أنفسكم ساهمتم حقاً في بناء دولة سعيدة؟ هل تعرفون الخرسانة المطلوبة للدولة السعيدة؟

ثم سكت فجأة. كان من الواضح أنه لم يكمل فكرته، لكن خيط الكلام انقطع منه.

ابتسم المضيف ابتسامة خفيفة. مسح صلعته وقال: أعوذ بالله من أفكارك يا شيخ.. أنت كما أنت.. شيوعي ولن تتغير! تخيلوا لو الجلسة كلها كانت مراقبة؟!

صاحب السالفين الطويلين نبه زميلهم البدين الذي يدون قائلاً: هذا الهراء كله خارج المضبطة. اعتبره أي كلام «تحت الهوا». ثم أخرج من جيبه قلادة ذهبية تشبه «السبحة» وقال: انظروا.. هذه القلادة أهداها هارون الرشيد لجاريته

زمردة.. وزمردة أهدتها لعشيقها السري، جدي الأول.. من أكثر من ألف سنة ونحن نتوارثها في العائلة لكن المشكلة أننا اختلفنا: هل نسميها قلادة هارون الرشيد؟ أم نسميها قلادة زمردة؟!

تركتهم يتحسسون فصوص القلادة بأصابعهم، ونهضت لجلب المزيد من الحلوى والفاكهة في طبقي، وبعدما انتهيت من الأكل ابتسمت شاكراً لهم دعوتي على الغداء. وقفوا بتثاقل وأحاطوا بي عدا العجوز الأسمر والكفيف.

بدأت في مصافحتهم وأنا أردد عبارات مجاملة: «أنتم أساتذتنا الكبار.. أنتم الرواد وحملة مشاعل التنوير.. نحن نتعلم منكم..» إلى آخر هذا الهراء، وقبل أن أصل إلى الباب الخارجي ناداني زميلهم البدين فوقفت في مكاني. نهض ورائي وعند الباب سلمني الورقة التي كتب فيها الخطاب بخط منمق. وقال لي إنهم اتفقوا منعاً لأي حساسية تتعلق بالأقدمية أن ألقي خطاب الشكر نيابة عنهم جميعاً.

ولما جاء موعد حفل التكريم، ارتديت بدلة رمادية أنيقة وجلست وخطاب الشكر في يدي، في انتظار أن تنادي عليّ مذيعة الحفل.

وأثناء الوقت الطويل في انتظار الملك بحثت بطرف عيني عن الرواد الخمسة في الصفوف كلها، وعلى الجانبين.. فلم أر أحداً منهم. فقط لمحت زوجة المضيف، العجوز السويدية، كانت ترتدي ثوب حداد أنيقاً وتجلس على الطرف الآخر من المسرح وبجوارها خادمتها السمراء. وحين التقت نظراتنا هزت رأسها لي على سبيل التحية وابتسمت وهي تداري دموعها.

# حقك من الدنيا

خرجت مسرعاً لشراء الساندوتشات قبل أن يعود صاحب العمل.

وصلت إلى سرادق كبير مثل تلك السرادقات التي تقام في رمضان بقماش الخيامية وتزيّن باللمبات الملونة. لا أدري لماذا كنت أتلفت حولي وأنا أطلب من البائع العجوز خمسة ساندوتشات.

تناول النقود مني في لامبالاة، ألقاها في وعاء معدني، وهو لا ينصت لأي كلمة أقولها:

ـ «١ مسقعة و٢ فول و٢ طعمية».

وقفت ألاحظه يحرك قِدْرة الفول ويغرف منها في طبق ألمونيوم به بقع سوداء، ثم يقوم بتعبئة أنصاف الأرغفة المفتوحة بين يديه. فجأة التفت إليّ وسألني عن طلبي، فأعدت الكلام عليه:

ـ «١ مسقعة و٢ فول و٢ طعمية»

ابتسم وهو يشير بسبابته نحو عينيه كأنه يقول لي: «من عيني».

ثم استمر في تعبئة كومة الساندوتشات وتفريغ الزيت من ثقب الزجاجة على خلطة الفول. في لمحة عابرة شعرت أن هذا العجوز يشبه ـ من جانب وجهه ـ المرحوم أبي.

ـ «لو سمحت.. لو سمحت»

ضم أصابع يده إلى بعضها، وهو يؤرجحها إلى أسفل:

ـ «يا ابني اصبر.. اصبر.. هي الدنيا طارت؟!».

زفرتُ هواء صدري في ضيق وسكتُّ. سألني إن كنت أرغب في القليل من «البقلاوة». أشحت وجهي بعيداً:

ـ «شكراً».

صمت قليلاً ثم عاد ثانية لفتح مجال للكلام معي:

ـ «معقول.. تتغدى ساندوتشات فول وطعمية ومسعقة من غير ما تحلي! جرّب البقلاوة..

حلوة ولذيذة»

نظرت في ساعة الموبايل خشية التأخر على صاحب العمل. ثم وجدتني أحتدّ عليه:

ـ «من فضلك جهز المطلوب.. ممكن؟»

ابتسم وهو ينظر إليّ من أسفل بطريقة لئيمة:

ـ «أنت فاكر إن تجهيز المطلوب سهل!».

برغم كبَر سنه، وشعوري بالألفة لأنه يشبه أبي من زاوية معينة، باستثناء لحيته الخفيفة غير المشذبة.. شعرت بالاستفزاز أكثر من كلامه، وطريقة نظراته:

- «اللهم طولك يا روح».

- «ولا تكون فاكر إنك الزبون الوحيد في الكون!».

تنهدت وأدرت وجهي إلى الناحية الأخرى، كي يصمت ويجهز الساندوتشات، لكنه استمر في الكلام كأنه يتعمد إغاظتي:

- «بص...».

انتبهت إلى إشارة إصبعه نحو عامل نحيف جدًّا كان يقوم برش خيوط الكنافة في دوائر على صاجة مستديرة. راح يتابع كلامه ويهزأ بي:

- «بص.. أهو عمك حمودة الفيل عنده طلبات كنافة شعر من عشرين سنة.. وأنت

مستعجل!»

- «يا عم خلصني» ثم خففت من حدة صوتي: «أبوس رِجْلك».

عاد لتعبئة كومة أخرى من الساندوتشات، وهو يقول:

- «الناس تصبر على أي شيء إلا الأكل».

قلت في نفسي: «لا بأس أن أجاريه وأتلطف بالكلام معه حتى ينتهي». رفعت صوتي بنبرة لا تخلو من سخرية، أكثر من كونها لطيفة:

- «على مهلك يا حاج.. أكيد فعلاً عندك طلبات من أربعين سنة أهم من خمسة

ساندوتشات»

رد مهللاً:

- «الحمد لله أخيراً فهمت وقدرت تعبي.. لوحدك».

ـ «مقدر والله.. المصيبة لو تأخرت على صاحب العمل!».

ـ «كلنا عندنا صاحب عمل قرفنا في عيشتنا.. المهم أنت لازم تجرّب البقلاوة».

حتمًا هذا العجوز اللئيم يتلاعب بي ولن يجهز الطلب من هنا إلى يوم القيامة! هممت أن أطلب منه استرداد نقودي والذهاب إلى أي مطعم آخر، لكنني رأيته ينفض يديه ويمسحهما في فوطة مزيتة مربوطة في وسطه، ثم تركني وهرول محنيَّ الظهر في اتجاه مدخل السرادق.

بكل بساطة وبرود تركني ووقف في البعيد يتسامر ويضحك مع فتاة خمرية، ودلوعة في حركاتها. لا يزيد عمرها عن عشرين سنة. ناديت عليه:

ـ «لو سمحت يا حاج!».

لوَّح لي من وراء ظهره، وهو يضم أصابع يده بنفس الطريقة المستفزة. ثم عاد مبتسماً وهو يقول:

ـ «عجبتك البنت العسولة؟ أنت فاكر طبعاً إنها حفيدتي.. صح؟»

قلت متبرماً:

ـ «أنت حر.. هو أنا سألتك؟!».

ـ «لا.. لكن الصراحة أنا قلت أغيظك لما تعرف إنها خطيبتي».

ـ «خطيبتك؟!».

ـ « طبعاً.. وتعشقني عشق الشجر للمطر».

ـ «عشق الشجر للمطر.. فعلاً؟!».

ـ «بعد إذنك.. أجهز لها طلبها الأول وبعدها طلبك».

- «لا.. يا عم الحاج.. جهز طلبها براحتك ورجع لي فلوسي».

- «فعلاً خُلِق الإنسان من عجل.. اصبر يا أخي.. إن الله مع الصابرين».

- «هات فلوسي لو سمحت!».

- «طيب قل لي شكل فلوسك بالضبط وأنا أعطيها لك».

- «أنت أكيد قصدك تغيظني.. قصدك تجنني!».

- «يا ابني.. أنت مجنون لوحدك.. أنت فاكر إن الكون كله مسخر لك أنت وساندوتشاتك! هع.. هع هع».

- «هات فلوسي يا عجوز يا ابن المجنونة.. هات فلوسي يا ابن المجنونة».

رحت أقذف لمبات السرادق الملونة بحجارة صغيرة ألتقطها من أمام المطعم وأنا أسمع خلفي صراخ الفتاة.. ثم اندفعت وهجمت على العجوز اللئيم وأمسكته من فتحة جلبابه ولم أنتبه إلا على أيدي أفراد الشرطة يخلصونه مني ويأخذونني معهم بتهمة التعدي على رئيس شرف المطاعم.

سمعت القاضي دون أن أراه، بصوت يشبه أصوات القضاة في الأفلام: «حكمت المحكمة على المتهم بالإعدام شنقاً».

ثم رأيت العجوز المجنون يدخل عليّ غرفة الإعدام مبتسماً وهو يربِّت على كتفي ويناولني كيساً ورقيًّا به خمسة ساندوشات:

- «خد يا ابني.. بقية حقك من الدنيا».

لمحت ظله المحني وراء ظهري وهو يجذب حبل المشنقة من أعلى ويلفُّه حول رقبتي.

# إحياء الطفل

لفّت زوجتي طفلنا في قماطه وحملته بين ذراعيها. راحت تناغيه وترف شفتيه بطرف سبابتها.

ظل وجهه هادئاً ساكناً. مغمض العينين، كما هو. كأنه في نوم أبدي عميق. وكان شعاع الضوء ينير وجهه مثل الملاك.

أسرعنا به إلى مدينة الأطباء.

مدينة الأطباء كبيرة وعائمة وسط جداول مياه ضحلة يصل فيها الماء الصافي إلى الركبتين. وقد تم تصميمها على هذا النحو كي لا تنتشر بها عدوى الأمراض المتفشية بين الناس هذه الأيام.

بيوتها الطبية بيضاء ومكونة من طابقين. حول البيوت أشجار سرو وكافور عملاقة تظلل جدرانها، وعلى كل شجرة منحوت بخط بارز اسم شخصية شهيرة، فهذه شجرة مارلون براندو وهذه شجرة تولستوي.. مجرد أسماء عشوائية لمشاهير، فتجد مثلاً شجرة الأم تريزا بجوار شجرة هتلر.

لا يمكن الوصول إلى الطبيب دون عبور حواجز كثيرة من الأشجار والمياه ونباتات الماء وركوب أحد القوارب الصغيرة أحياناً. القوارب كانت متاحة مجاناً

للجميع، ويقودها صبيان سمر لهم رؤوس ضخمة على أجساد ضامرة شديدة النحافة.

أثناء جلوسنا في القارب كنا نرى بسهولة قطع الحجارة الجيرية والطحالب راسية في القاع وطيور بيضاء مائية لا أعرف اسمها، لكن تغريدها المبحوح كان لطيفاً ومهدئاً للأعصاب. بدت بعض البيوت الطبية التي درنا حولها بلا مدخل ولا نوافذ. أشارت زوجتي إلى طوابير المرضى أمامها. خمنت أنها تعني أننا سننتظر طويلاً، أو أنها فقط تستغرب من وقوف هؤلاء المجانين أمام بيت لا مدخل له!

لم تكن هناك أي لافتة تساعدنا في معرفة تخصص كل بيت طبي. وبما أن طفلنا كان صامتاً ولا تصدر عنه أدنى حركة، فلا أنا ولا أمه كنا نعرف مما يعاني على وجه الدقة، ولا من هو الطبيب المناسب لعلاج هذه الحالة.

تمنيت لو نعثر على طبيب ساحر يساعده كي يصرخ ويبكي ويضحك ونسمع كركبة بطنه وضراطه. مثل أي طفل طبيعي.

ونحن نجتاز المزيد من الممرات المائية، تخيلت شكل هذا الطبيب الساحر وهو يتناول الطفل من أمه ويدق على بطنه ثلاث دقات خفيفة، ثم ينفخ الهواء في أذنه، يفتح جفن عينه برقّة، ثم يفحصها بآلة صغيرة.. قبل أن يأتي بآلة أخرى تقبِّل صغيري في فمه فتدب في جسده الحياة.

لا أستطيع أن أتصور فكرة أنه ميت ولن يحظى بدقيقة حياة واحدة على الأقل. دقيقة واحدة يتنفس فيها ويبتسم. كلما مرت في خاطري تلك الفكرة كنت أطردها وأشجع زوجتي.

من يكون هذا الطبيب الساحر؟ وأين نعثر عليه وسط هذه البيوت، ونحن نخوض في شوارع مائية لا نهاية لها؟!

انتبهت إلى وجود عدد لم أكن أتخيله من الأولاد السود، كانوا نصف عراة يجوبون الشوارع بخفة وألفة. لعلهم أدلاء وسمسارة يساعدون المرضى القادمين إلى المدينة مقابل عمولة بسيطة، أو يبيعونهم سراً أدوية ممنوعة كما نسمع في التلفزيون.

بعضهم كان يلهو بمطاردة سمك الماكريل الصغير الذي يسبح حولنا ويقفز في الهواء فجأة. أشرت إلى زوجتي: لن يساعدنا إلا أحد هؤلاء الأولاد الأوغاد.

ناديت على أحدهم وسألته عن أمهر أطباء المدينة، فشرح لي كيف أن هذا الطابور الواقف أمامنا، هنا منذ عام لأن هذا البيت أساساً بلا مدخل لكن الطبيب الموجود في داخله ماهر جدًّا. ثم اتجه بنا إلى خلف البيت وجلب سلماً خشبيًّا وصعد أمامنا.. تناول الطفل مني، وبدوري ساعدت زوجتي في الصعود قبلي.

هبطنا إلى صحن البيت والتقينا الطبيب دون الوقوف في طوابير، وبمجرد أن وضع يده على جبين الطفل البارد حتى قال:

- «الولد ميت!».

قلت له:

- «ألا تستطيع أن تفعل شيئاً؟».

هز رأسه:

- «قلت لك الولد ميت»!

دخَّن من غليونه وهز رأسه ثانية، ثم أشار بيده كي ننصرف.

الولد الذي اصطحبنا أعادنا عن طريق السلم نفسه، وشجعنا ألا نيأس. روى لنا كيف جاء صغيراً من الصومال، مثل عشرات الأيتام إلى هذه المدينة،

وكان لا يستطيع اصطياد سمكة ماكريل واحدة، أما الآن فهو يضرب يده مثل الخطاف فيخرج السمكة في ثانية واحدة.

لا أعرف ما علاقة ما حكاه لنا بإحياء ابني. على أية حال كلامه شجعنا على الذهاب إلى طبيب آخر. قرأت على شجرة تشبه شجر الأرز اسم «لويس بونويل» وحين التفت الولد وسألني: ما اسم طفلك؟ قلت كاذباً ودون تردد:

ـ «لويس بونويل».

فعاد وسألني إذا كان طفلي تسمم بسبب اسمه الغريب هذا؟! شرحت له أنه وُلد هكذا. لا يتكلم ولا يتحرك ولا يتنفس.

ـ «أصابته الحصبة الألمانية؟».

لم أرد، فابتسم الصبي الأسمر بعينيه الواسعتين ورشح لنا طبيباً عجوزاً، قال إنه حكيم المدينة الطبية كلها.

تطلع الطبيب حكيم المدينة في وجه الطفل الساكن بين ذراعي أمه، ثم نظر في عيني وخلع قبعته وقال:

ـ «من تظنني أيها الأبله؟ عيسى ابن مريم!».

دفعت للصبي، بعد مغادرتنا، مزيداً من النقود وقلت له لا بد أن هناك في هذه المدينة أطباء سحرة قادرين على فعل المعجزات! رد مؤكداً على كلامي:

ـ «طبعاً هناك أطباء أولاد جنية. هيا بنا..».

قادنا عبر جدول صغير ـ على الأرجح ـ إلى خارج المدينة، وعلى ناصية النهر كان هناك بيت طبيب هندي يبدو في سن المائة وله لحية بيضاء بطول صدره وصلعة محمرة على جانبيها شعر أبيض، طويل وناعم.

تناول الطفل في حجره وراح يدلك أعضاءه المتيبسة بهدوء ويتلو تعاويذ غامضة. ابتسمت في سري، فهو على الأقل لم ينهرنا. بل لم يبال أصلاً بوجودنا. هو الوحيد الذي كان مؤمناً بإمكانية أن يتحرك طفلي. فجأة وجدتني أصيح:

ـ «طفلي ابتسم.. طفلي ابتسم».

كان طفلي يبتسم بالفعل. زوجتي أيضاً لاحظت ذلك ووقفت مهللة، وقد امتلأت عيناها بالدموع.

الطبيب الهندي العجوز كان ساكناً كما هو، مغمض العينين، وكأننا لا وجود لنا أمامه. كان بجواره راديو صغير تنبعث منه موسيقى «برسيفال» لفاجنر. لا أتذكر كيف عرفت أنها موسيقى «برسيفال».

أخبرنا الطبيب أنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك. كل ما يمكنه أن يفعله هو أن يجعل الطفل يبتسم لأبويه. تدخل الصبي الدليل وقال لنا:

ـ «أرأيتم؟ هذه معجزة حقيقية! المعجزات مازالت تحدث!».

سألته زوجتي:

ـ «ألن يتحرك؟ ألن يقول شيئاً لأمه؟!».

هز الطبيب رأسه وأعاد الكلام نفسه بأن كل ما يستطيعه أن يجعله يبتسم لنا كلما جئنا به إلى هنا. هممت بدفع أجرة الطبيب فنهرني الصبي وهمس في أذني بأن هذا العجوز الهندي أكبر أطباء المدينة سناً وهو زاهد توقف عن أخذ أية أجرة منذ ستين عاماً. وهو الوحيد الذي يعالج من دون أن يكتب أي علاج لأحد.

قالت زوجتي بعدما انصرفنا:

ـ «وماذا سنفعل بابتسامة طفل لا يتكلم ولا يتحرك؟!»

قلت لها: «يكفي أنه يعرفك ويعرفني ويبتسم لنا».

ـ «وهل سنقطع كل يوم هذه الرحلة الشاقة من أجل أن يبتسم لنا؟»

فضّلت تغيير الموضوع:

ـ «ما رأيك في تأجير أحد البيوت هنا.. بالقرب من بيت الطبيب الهندي!»

الصبي الذي مازال يسير معنا كي يرشدنا إلى المرسى الرئيسي للقوارب استحسن الفكرة وأكد أننا سننعم هنا بهدوء لا مثيل له في أي مكان آخر في العالم.. استطرد يشرح لنا فوائد أن يكون لدينا بيت يحيطه الماء من أربع جهات وأشجار سرو وكافور وأرز ويمام وطيور بيضاء، ونستطيع أيضاً أن نرى سمك الماكريل وهو يلعب في المياه الجارية الشفافة، يذهب إلى المحيط ويعود.. فوق هذا كله، تستطيعون الحصول على ابتسامة من طفلكم في أي وقت. في حين أن آباء كثيرين لديهم أطفال أحياء ولا يستطيعون الحصول على ابتسامة منهم.

ظل الصبي يحكي متحمساً وهو يأسف لأنه لم ير ـ مثلنا ـ ابتسامة طفلنا بعينيه، لأنها معجزة خاصة فقط بين الطفل ووالديه، كما فهم من الهندي العجوز.

سكت أخيراً.. ونحن بدورنا كنا صامتين، نسير خلفه.

ثم التفت نحوي وعاد يقول:

ـ «من المؤكد أن ابتسامة الطفل عظيمة.. معجزة فعلاً».

# زيارة صاحب العمل

كنا نأتي وننصرف دون أن نرى صاحب العمل على الإطلاق، فهو يدير الأمور كلها بواسطة مساعديه. وكنا نتابع أخباره في الصحف وصوره مع الزعماء والمشاهير، وعندما نذهب ونشكو لأحد المساعدين يتعلل بأن الأمر ليس في يده بل في يد صاحب العمل. كنا جميعاً نشعر بأن هؤلاء المساعدين أوغاد بالفطرة يتلاعبون بنا وأن السيد طيب لا يعرف ما يدور من وراء ظهره، ولا ما نعانيه هنا.

قلتُ لزملائي: «لا تسبوه وأنتم لم تروه!».

ولم أتخيل في يوم من الأيام أن صاحب العمل سيوافق أن ألتقيه وأقنعه بأن يجلس معنا نحن العمال ونتناقش حول كل ما نعاني منه.

أنصت الرجل إليّ بصبر ومحبة لم أتوقعها.. بل وأعطاني وعدًا أن الأحوال سوف تتحسن قريباً جدًا.

- «متى يا سيدي؟».

- «أقرب مما تتصور».

كانت فرحتي كبيرة حين أخبرني أنه سيأتي للقائنا بمفرده ودون حراسة.

قمنا بتزيين قاعة «الاستقبالات» الكبرى بالبالونات الحمراء والخضراء والزرقاء وعلقنا لافتات ترحيب كما يليق بصاحب العمل ثم جلسنا ننتظره، ونحن نغمز هازئين من المساعدين الذين ارتدوا أقنعة حيوانية، ووقفوا بأوامر منه على أطراف الممرات الحلزونية خارج القاعة.

طلبتُ من زملائي أن يتركوا فؤوسهم ومناجلهم وحرابهم والمناشير الكهربائية اللعينة.. وكل أدوات العمل على باب القاعة.. وأيضاً ساعات اليد والموبايلات والآي باد وضعناها في قسم الأمانات تأدباً واحترامًا للسيد الكبير. وللتسرية عن أنفسنا خلال فترة الانتظار راح أحد الزملاء يستعرض لنا موهبته في الإنشاد الديني.

وبعد أن دق جرس الكنيسة المجاورة للمصنع سبع دقات، أطل علينا السيد في جلباب أبيض ووجه مستدير قليلاً.

بدا للوهلة الأولى يشبهنا ونشبهه.

لم يكن متجهماً كما يصوره لنا مساعدوه. قلتُ لزملائي: «تحدثوا معه بكل ما في قلوبكم.. لا تصابوا بالذعر ولا تحجموا عن الكلام».

ابتسم لنا وهو يحدثنا عن عصاميته وكيف بنى نفسه من الصفر.. عن والده العامل الذي أصيب بالشلل بسبب غلطة زميل آخر.. قصته ليست عادية مثل قصصنا بل تشبه تلك القصص النبيلة التي نراها في الأفلام.. لكنه توقف عن سردها وارتدى نظارة القراءة وبدأ يحدثنا عن التحديات التي تواجهها شركاته.. كان يدعم كلامه بأرقام كثيرة لا نعرف عنها أي شيء، وبعدها خلع نظارة القراءة وحدثنا عن أهمية روح الفريق الواحد وعظمة التضحيات التي علينا جميعًا أن نتحملها.

كان متحمسًا.. يتصبب عرقاً ويمسح جبينه بمنديل قطني وفجأة دخلت بالخطأ حمامة بيضاء وراحت تطوف حول رأسه. شعرتُ أنها علامة إلهية على شيء ما، وظللت أشير إلى زملائي العمال بيدي كي يتوقفوا عن التململ وينصتوا باهتمام إلى كلام السيد. لكن أصواتهم تحولت من همهمات مكتومة إلى ضجيج علا في القاعة وغطى على صوت السيد.

ظل السيد هادئاً مبتسماً رغم اللغط وهو يفحص القاعة كلها بعينيه الحانيتين، وأخيرًا توقف عن الكلام وطلب من كل واحد منا أن يقدم شكواه ويطرح سؤالًا محددًا بدلًا من هذه الجلبة التي لا يفهم منها شيئًا.. وهنا قذف أحد الزملاء بمنجل معقوف كان يخفيه تحت ملابسه وكاد أن يطعن وجه السيد.. فحدث هرج ومرج.. تدافع الحضور في كل اتجاه وعلت الصيحات.. ثم تعارك الزملاء الذين يرتدون أفرولات زرقاء من قسم الإنتاج، مع الزملاء الذين يرتدون أفرولات برتقالية من قسم التوزيع.

خطفتُ الميكرفون من أمام السيد، ورحت أزعق عليهم منفعلًا:

- «اهدأوا يا حيوانات.. يا حيوانات اهدأوا.. ستضيعون حقوقنا.. لن نحصل على شيء

طالما بيننا خائن!»

وقبل أن أكمل كلامي، لمحت السيد الكبير يتسلل خلسة مغادراً. أحنى رأسه تحت أيادي حراسه الذين أحاطوه فجأة.. وهرولوا به في اتجاه مخرج الطوارئ، المجاور لدورات مياه العمال.

# حفلة عربية

كانت القاعة مضاءة بالنجف والكريستالات الضخمة، وعلى جدرانها لوحات مؤثرة لمعرض «الجوع في أفريقيا»، وكان من المفترض إقامة مزاد لبيعها بعد حفل العشاء.

في القاعة نساء ورجال يتبادلون ضحكات محسوبة ومفتعلة في انتظار إقامة المزاد. خارج المدخل كان الممثل الكهل بشعره المنسدل على كتفيه.. يجثو على ركبتيه ممسكاً بيد فتاة مربربة وقصيرة القامة. همهمات وابتسامات ساخرة بسبب إصراره أن يكون الممثل والمخرج والمؤلف والمنتج في نفس الوقت. لم أسمع من كلام الممثل سوى جملة واحدة:

ـ «أرجوك.. سامحيني يا عزيزتي».

كان من الصعب أن أعرف هل هي زوجته أم حبيبته أم ابنته؟ ولا على ماذا تسامحه؟ كانت الفتاة لا تتكلم. وهو لا يفعل أي شيء سوى تكرار هذه الجملة.

ـ «أرجوك.. سامحيني يا عزيزتي».

من الواضح أنها جملة مهمة جداً، لذلك خصص لها مشهداً كاملاً أعاده أكثر من مرة.

على يسار المعرض وقف رجل يشرح لزوجته أن هذا الممثل الكهل يصور فيلمًا عن شكسبير وأيضًا يشارك في مزاد الجوع في أفريقيا.. ولهذا السبب إدارة الفندق أجرت قاعة «كليوباترا» للمزاد ولتصوير الفيلم في نفس الوقت.

في الداخل، رنين ملاعق وأطباق لحظة فتح «البوفيه». وكان هناك مواء قطط. وقف شاب قال إنه نجل الممثل وكان غاضًبا، يلوم من فتحوا «البوفيه» قبل أن ينتهي والده من المشهد الأخير:

- «لو سمحتم راعوا الأصول.. أبي مازال يمثل أهم مشهد!».

أثناء صياحه علينا، صعدت مطربة سمراء بدينة برفقة ثلاثة عازفين على منصة صغيرة جهة اليمين وقالت إنها تأخرت جدًّا في تقديم نمرتها ولديها نمرة أخرى في فندق آخر، ثم بدأت تغني أغنية وردة «أوقاتي بتحلو.. تحلو معاك». وهكذا توزع جمهور قاعة «كليوباترا» إلى ثلاث مجموعات.. مجموعة تتأمل بتأثر صور «الجوع في أفريقيا» والثانية ملتفة حول الممثل الكهل وهو يقول: «أرجوك.. سامحيني يا عزيزتي»، والمجموعة الثالثة كانت تتمايل وتصفق للمطربة.

وسط كل هذا ارتفع مواء القطط وارتفع أيضًا صياح نجل الممثل: «أبي مازال يمثل أهم مشهد»، في اللحظة التي بدأت الأيادي تدور بالأطباق الممتلئة بتلال الطعام وتتجه نحو الطاولات المصفوفة على شكل قلب كبير.

وفجأة علا صوت الممثل الكهل، آتياً من عند مدخل القاعة:

- «اسمحي لي.. أرجوك اسمحي لي».

بدت لي جملته الجديدة تطوراً مهمًّا في المشهد، حتى لو كان لم يتجاوز فكرة التوسل بعد! ثم سرعان ما ضاع صوته وسط ضجيج الأطباق والملاعق والضحكات والحوارات الجانبية.

وسط الجمهور في القاعة سمعت جملة واحدة تتكرر على أكثر من مائدة:

- «حمام بالفريك.. ما شاء الله»!

سحبت طبقي ومررت أمام سلطة خضراء وزيتون وتبولة، سلة خبز فرنسي، بجوارها سلة خبز عربي، خروف مشوي وقد بانت أضلاعه بعد ضربات السكين في جسده، وبالقرب منه تل من الجمبري المصفوف على أعواد خشبية رفيعة، كتل اللحم المقدد، شرائح سمك عائمة في صلصة بيضاء، سمكة هامور طويلة جدًا ترقد وحدها في المرق الساخن دون أن يقترب منها أحد، ثم أرز أبيض وأصفر بالكاري.. وفي زاوية جانبية سلة فواكه، حلوى «أم علي»، كرات آيس كريم موزعة في كؤوس، وأخيرًا علب الكولا وكؤوس العصائر.

عبرت كل هذه الأصناف وظل طبقي خاويًا فطلبت من الطاهية الفلبينية أن ترشدني إلى الطبق الأفضل. تقدمت أمامي بمشية مهذبة وكشفت غطاء وعاء كبير ثم اختارت بنفسها حمامة محشوة بالفريك الأخضر ووضعتها في طبقي. تبادلنا ابتسامة خفيفة. أمسكت بيدها الصغيرة حمامة أخرى محشوة ودسَّتها لي في جيب الجاكيت الأيسر. وقبل أن أنطق بكلمة بادرتني بوضع سبابتها على فمي ودون أن تتخلى عن أسلوبها المهذب قالت:

- «لا تقلق يا سيدي.. الجميع هنا يفعلون ذلك».

دستْ حمامة أخرى في جيبي الأخر:

- «خذ ما تستطيع لأولادك».. فأسرعت مرتبكاً والطبق الأبيض يهتز في يدي. جلست على مائدة لا أعرف أحداً من الجالسين عليها، بشعور من يداري جريمة ارتكبها. ابتسمت للرجل الذي تطلع إليّ فابتسم وقال وهو يطالع طبقي:

- «ما شاء الله.. حمام بالفريك»!

رفعوا وجوههم عن أطباقهم الممتلئة ومدوا أعينهم نحو طبقي وصاحوا:

ـ «حمام بالفريك.. ما شاء الله.. ما شاء الله».

وعندما أنهوا أطباقهم وغادروا رأيت جيوبهم مكتظة بالحمام وتتسرب منها حبات الفريك. تخففت من خجلي وارتباكي وأنا أنصرف وراءهم.. وكنتُ أسمع صوت الممثل الكهل وقد عاد إلى جملته الأولى:

ـ «أرجوك.. سامحيني يا عزيزتي»!



# أسرة أمام التلفزيون

على مدخل العمارة القديمة شممت رائحة البلطي المقلي من شقة الجيران. صعدت إلى ما قبل باب الشقة بدرجتين وسمعت جارتنا ـ كعادتها عند الغضب ـ تشخر وتتوحوح، وتطلب التلفون من بنتها مقصوفة الرقبة. من بين خليط الأصوات كان صوت ماري منيب في التلفزيون عالياً:

ـ «أنت جايه تشتغلي إيه؟»

كان باب الشقة موارباً، وحتى الشراعة الزجاجية كانت مفتوحة وراء زخارف حديدية معلق بها دمية قطنية مغبَّرة لدُبِّ الباندا.

سمعت جارتنا ترقق صوتها وهي تكلم «أم رشا» في التلفون وتطلب منها «سُلفة» ضرورية ثم راحت تتحسر على درجات ابنها وحكاية ضابط الجيش الذي تقدم لابنتها وموعد سفرهم لرأس البر وسعر البطيخة التي اشترتها اليوم. كل هذا روته في خمس دقائق تقريباً وأنا أستريح من صعود السلم.

لا يفصلني عن الباب الموارب أكثر من خطوة، فكنت أراها تتكلم في التلفون وهي ممددة على الكنبة وجلبابها انحسر عن وركيها، وخلفها يظهر طرف

سروال داخلي أبيض، خمنت أنه ساق زوجها. على أرضية الصالة كرة خيط ملونة وطبق بلاستيك فيه بقايا طعام.

وقفتُ بجرأة على عتبة الباب أتأمل وركيها شبه العاريتين، وأنا أصيح:

- «بدل ما تسمعوا ماري منيب اسمعوا أم كلثوم!».

لم تلم المرأة ساقيها لكن زوجها نهض غاضباً فدفعني إلى الوراء وأغلق الباب. ارتجت الشراعة مرتين قبل أن تغلقها يد.

تسمرت في مكاني وقتاً أتابع حركة ظلالهم وراء الزجاج المضاء وهم يتجولون في الصالة بقمصان النوم والملابس الداخلية، وسمعتها تعاود الوحوحة والشخير.

الأحذية المبعثرة أمام الباب تعني أنهم كانوا جميعاً في الداخل: الزوجة والزوج وبنتها فارعة الطول التي تقدم لها ضابط الجيش وابنها طالب الحقوق وابنها الآخر المراهق.

قبل أن أصعد إلى شقتي على السطوح، فتحت بنطلوني ورحت أتبول بهدوء في فتحات خمسة أزواج من الأحذية بطريقة عادلة، لا تترك أثراً كبيراً في الصباح.

# مملكتي مقابل امرأة

دعاني زميلي الروائي الملتحي للمشاركة في مهرجان أدبي، في دبي ونزلنا في فندق الجميرا الفخم، ثم اكتشفت أن الروائيين فقط هم من يحق لهم تناول ثلاث وجبات في المطعم الإيطالي، أما من يحمل لقب «قاص» فلا يحق له سوى وجبة الفطور فقط. تضايقت وقررت ألا أستجيب لأي دعوة من أي مهرجان بعد ذلك إلا إذا تأكدت من حق القاص في الحصول على ثلاث وجبات.

صراحة لم أكن جائعاً إلى هذه الدرجة لكن روائية لبنانية كانت تروق لي ورغبت في دخول المطعم والثرثرة معها.

كان يقف على مدخل المطعم صبيَّان كأنهما من أطفال الشوارع بملابسهما الرثة ورائحتهما المغبرة. صممت على الدخول وحين لمحني الزميل صاحب الدعوة نهض بهدوء وسحبني إلى داخل المطعم، لكنه اشترط عليّ أن أجلس وحدي كأي قاص محترم حتى لا ألفت انتباه مسئول المطعم، وحذرني من الثرثرة وإزعاج الروائيين، قائلاً: «عذراً.. لن تستطيع أن تجاريهم في الكلام!» ثم جاء النادل ووضع أمامي طبقًا به قطعة واحدة من الثلج!

كان الروائيون يثرثرون حول فتاة أجنبية تعزف على البيانو. اكتفيت أن أبتسم من بعيد للروائية اللبنانية وأنا أطالع صدرها العرمرم وأتنهد وأهز رأسي حسرة. هي كانت تبتسم لي، وأيضاً هزت رأسها هزة خفيفة وراحت تنفث دخان سيجارتها في اتجاهي بطريقة مثيرة.. أو أنا تخيلتها مثيرة.

لا شك أنها روائية نزقة!

أثناء انصرافي وبطريقة لطيفة، دون أن يشعر أحد، صافحتها خلسة، وأعطيتها رقم غرفتي في ورقة صغيرة وتوقعت على الأقل أن تتصل بي ونخرج للتمشية على البحر في الليل أو شرب كأسين في بار «٣٦٠».

رتبت نفسي أن أكون جريئاً أكثر وأدعوها إلى غرفتي على كأس براندي فرنسي واستبدت بي الرغبة في عضعضة حلمة أذنها.

ظللت منتظراً اتصالها إلى أن غفوت، وعندما سمعت الطرق الخفيف، نهضت وفتحت الباب فرأيت زميلنا الروائي الملتحي صاحب رواية «معًا إلى الأبد». كان يرتدي جلبابه الأبيض والطاقية الشبيكة ويدعوني إلى صلاة الفجر جماعة.. كنتُ أشعر بعدم التوازن من أثر السكر، ولا أعرف كيف تمت كل هذا الوقت!

حاولت التملص منه فقلت له:

- «للأسف يا صديقي أنا درزي مسيحي»

حرصتُ ألا أكون فجًا معه. ابتسم وقال بإصرار: «وليكن.. اعلم يا زميلي العزيز أثابك الله أنك لو واظبت على صلاة الفجر جماعة ثلاثين يوماً ستشعر بسعادة ولذة.. لذة لم تذق مثلها قط!».

كان يثرثر بثقة كأي روائي، وطريقته في نطق كلمة «لذة» قرصتني وذكرتني مباشرة بصدر الروائية اللبنانية وشفتيها وهي تنفث سيجارتها.

لستُ متأكداً إذا كنت قد استسلمت لإلحاح الزميل الروائي الملتحي وخرجت للصلاة معه أم لا! كل ما أتذكره بعد ذلك أنني وجدت نفسي في صحراء خالية من البشر والمباني والأشجار.. لا شيء سوى مسجد صغير الحجم.. أمامه طاولة عليها عشرات النسخ من رواية «معًا إلى الأبد». اقتربت وجلاً من باب المسجد المفتوح فرأيت شيخاً معمماً يعطيني ظهره وهو يجلس في هيئة التحيات ويتمايل خفيفاً إلى الأمام. بدا من انحناءته أنه عجوز طاعن في السن، فناديت من بعيد:

- «هل أدخل يا مولاي؟».

سمعت صوتاً أجش يشبه صوت الفنان محمد السبع في أفلام الأبيض والأسود:

- «ستعيش لحظات سعادة عابرة.. وحزناً طويلاً طويلاً».

ناديته مرة أخرى:

- «مولاي! أدخل؟»

- «ستعيش لحظات سعادة عابرة.. وحزناً طويلاً طويلاً»

- «مولاي!»

أخيراً التفت الشيخ العجوز ناحيتي فرأيت وجهه محروقاً ومتفحماً.. أسرعت هارباً.. وقبل أن أتجاوز سور المسجد الخارجي جذبتني يد حارس يرتدي خوذة ويحمل رمحاً، ودون أن يتكلم معي أعطاني سيفاً خشبيًّا وربَّت على كتفي ثم خلع خوذته ووضعها فوق رأسي.

كنتُ متضايقاً لأنني فقدت أثر الروائية اللبنانية الشقراء، وبدلاً من أن أمسك يدها وأقبّلها وجدتني أسير في الصحراء وأحمل سيفاً خشبيًا.. ثم ظهر لي من دون توقع سور من أشجار الآس بزهورها البيضاء.

رحتُ ألوّح بالسيف في الهواء وأجري منتشياً، إلى أن وصلت إلى نفق مظلم ورأيت على مدخله الملك ريتشارد الثالث، ربما لأنني كنتُ مفتوناً بمسرحيته.. كان واقفاً بجوار رأس حصان مبتور وهو يصيح صيحته الشهيرة:

- «مملكتي مقابل حصان!».

اندفعت أقلد صيحته بطريقتي الهزلية:

- «مملكتي مقابل امرأة»!

كلانا راح يصيح في اتجاهين مختلفين. هو يصيح: «مملكتي مقابل حصان»، وأنا أصيح: «مملكتي مقابل امرأة».

كنت أصيح وأجري وألوّح بالسيف داخل النفق، وكنتُ أسمع خرير الماء تحت قدمي. لم أعد أرى شيئاً عدا يدي وهي تطوح السيف يميناً ويساراً. أجري وأزعق: «مملكتي مقابل امرأة».. ثم ضاق بي النفق فوضعت السيف في فمي وأكملت طريقي حبوًا إلى أن وصلت إلى لسان صخري يمتد داخل البحر وفي نهايته بار «٣٦٠».. موسيقى صاخبة تصدح حوله.. كان البار مزدحمًا بشباب وفتيات أوروبيات.. دخلت شاهرًا سيفي فرأيت الروائي الملتحي يسكر مع الروائية اللبنانية التي كانت تدخن بنفس طريقتها المثيرة.. فصرخت منقضًا عليهما بالسيف الخشبي: «الله أكبر».

# ضحية آخر الشارع

ذهبت لاستلام سيارتي من الميكانيكي في شارع جانبي متفرع من شارع فيصل. وكان الميكانيكي هو نفسه قس الكنيسة المجاورة للورشة، لذلك منحني بركته بيد ومفاتيح السيارة باليد الأخرى، وعندما هممت بالركوب اقترب مني كهل مبتسماً.

كان يعرج في مشيته وذراعه اليمنى ملفوفة في جبيرة ملوثة.

طلب مني أن أوصله فترددت. قلت له إنني سأتجه إلى آخر شارع فيصل، ظنًّا مني أن معظم الناس يتجهون إلى أوله في اتجاه ميدان الجيزة. فاجأني بقوله: «ممتاز جدًّا».. وصعد خلفي.

كنا في المساء وأعداد الناس في هذا التوقيت قليلة نسبيًّا. لم يرق لي أن يركب في المقعد الخلفي كأنني سائقه الخاص، فمن الذوق أن يركب إلى جواري!

انطلقنا ولمحته من المرآة لا يتوقف عن الابتسام. ابتسامة بلهاء ومريبة. بان لي من طرف الجبيرة مسمار شبه معقوف، فاستغربت لأنني لم ألحظ هذا المسمار قبل أن يركب! رحت أفكر في اللحظة المناسبة لإيقاف السيارة وإنزاله منها!

كنا في أجواء ما بعد ثورة يناير وسمعنا في الطريق إطلاق نار أكثر من مرة إلى أن اقتربنا من آخر الشارع.. لا سيارات.. ولا بشر تقريباً.. مرة أخرى اختلست النظر عبر المرآة إلى ابتسامة الرجل البلهاء ومسماره المعقوف.. تخيلته يقفز فوقي من الخلف ويضغط بالجبيرة على رقبتي، أو يطعن طرف المسمار في شريان رقبتي النافر.

راح العرق ينز بطول ظهري. فجأة ركنت السيارة أمام محل مغلق ومكتوب عليه بخط أسود رديء: «للبيع».. هبطت منفعلاً وأنا أجذبه من ياقة قميصه الرث:

- «انزل».

- «أنت قلت آخر الشارع!».

- «لأ.. انزل هنا».

دفعته نحو باب المحل المغلق وأنا أصيح:

- «يا بوليس.. يا بوليس.. يا بوليس»!

لم يتوقف أحد لصراخي.. والرجل الكهل استسلم بين يدي ولم يقاوم كما توقعت.. لم يتنازل عن ابتسامته الصفراء إلى أن لحق بنا شاب في يده «سنجة» وعلى بطن ساعده وشم غراب.. تطلع في وجه الرجل بنظرة الخبير:

- «هو أنت يا ابن الكلب؟!»

ثم ربَّت على كتفي:

- «خلاص.. أنت رجل طيب.. سامحه.. المرة دي».

شعرت بالحيرة والتردد، فمن يدريني أنه لن يذهب لاصطياد ضحية غيري! سحب الشاب يدي برفق وحَسْم لأفلته.. فانطلق الرجل وهو يعرج في ظلام شارع جانبي.

بالكاد ابتلعت ريقي وأنا أهم بركوب السيارة مرة أخرى. انتبهت إلى الشاب يقترب خلفي وفي يده «السنجة»، ودون حتى أن يستأذنني صعد وركب في المقعد الخلفي.

# شقة الحفيد الأمريكي

أنهيت بقية الإجراءات مع البنك وأخبروني أنهم انتهوا من إعادة الطلاء، وبعد العصر استلمت مفتاح شقتي الجديدة ومعه بوستر كبير لسعاد حسني.

الشقة التي دفعت فيها تحويشة العمر، وسأظل أدفع بقية أقساطها للبنك عشرين عامًا أخرى! كانت ماتزال خالية من الأثاث باستثناء سرير نحاسي عتيق عثرت عليه في غرفة النوم. من شدة التعب نمت عليه رغم أن رائحة الطلاء الذي لم يجف بعد.. كانت تثير حساسية صدري. انتبهت قبل أن أغفو إلى صورة على الجدار.. عروسان في ملابس الزفاف بالأبيض والأسود.. لابد أنها صورة الزوجين اللذين كانا يعيشان هنا. تبدو كأنها التقطت في أربعينيات القرن الماضي! لا أدري لماذا لم يأخذها معه حفيدهما الأمريكي الذي اشتريت منه الشقة، رغم أنه كان حريصًا ألا يتنازل لي عن جنيه واحد!

استيقظت عند منتصف الليل تقريبًا على عزف أكورديون كئيب ينبعث من مكان ما، وانتبهت إلى خرير صنبور في الحمام. شعرت بجسدي ثقيلاً. صداع في عيني اليسرى. ما ضايقني أكثر أن الكهرباء كانت مقطوعة عندما استيقظت. تثاءبت وخرجت إلى الصالة لإغلاق صنبور المياه. لا أتذكر إن

كنت تركته مفتوحاً أم لا.. كان باب الحمام على يسار باب الشقة مباشرة، وقبل أن أصل إليه لفحتني هبَّة هواء ساخنة.

تأكدت من إغلاق الصنبور بإحكام وتخايلت بفأر صغير يفر من نافذة الحمام. عدت للاستلقاء في غرفة النوم لكنني سمعت خرخرة الماء في الحمام مرة أخرى، فنهضت متذمراً. أثناء مروري في الصالة وعلى ضوء قمر شاحب، يتسلل من مكان ما، لمحت امرأة عجوز منكوشة الشعر وهي تعبر الصالة منحنية. لم أستطع أن أرى وجهها! ورغم إنحنائها رأيتها تسير بسرعة وتسبقني إلى غرفة النوم. أصابني الرعب والذهول فجريت عكس اتجاهها وفتحت باب الشقة لأستنجد بالجيران.

وقفت أمام باب الشقة ألهث ولا أعرف ماذا أفعل ولا ماذا أقول؟! في الردهة بين الشقق الأربع لمحت عجوزاً مسرعاً يرتدي بيجامة نوم مخططة وطاقية من نفس قماش البيجامة.. كان يسير جيئة وذهاباً ويدخن سيجارة.. تضاعف إحساسي بالرعب والهلع. أعطيت أمراً للساني كي يهتف:

- «الله.. الله.. الله»

لم يهتف!

كان لساني عاجزاً، محجوباً، معقوداً لا ينطلق.

كل ما أراه سيختفي لو ذكرت اسم الله.. كان هذا يقيني. وبكل طاقتي الروحية استحضرت في قلبي فرقة مولوية كاملة تدور وتدور.. ولا تنشد إلا «الله.. الله.. الله» بإيقاع أبدي.. لأذوب مع الفرقة فيصعد صوتها عبر لساني إلى الخارج. ستعود الأمور إلى طبيعتها لو دوى لفظ الجلالة في أرجاء الشقة.

ارتميت مستنداً إلى الجدار أمام الشقة. لا أقوى على الوقوف. كنت ألهث من فمي الموارب بصوت مسموع.. لساني كما هو لا يتحرك بأية كلمة. انتبهت

إلى أنني تركت باب الشقة مواربًا عندما رأيت العجوز المسرنم بملابسه المخططة يمر من أمامي مبتسمًا، ثم فجأة هز رأسه لأعلى ونفر بجسده النحيل جدًا كالوتر:

ـ «حي.. الله.. حي.. الله حي».

ظل صوته وإيقاعه مطابقًا لصوت المولوية المحبوس في داخلي. مازلت جالسًا مستندًا على الجدار ولا أقوى على الحركة. جاءت المرأة العجوز وسحبت زوجها المسرنم من يده إلى داخل الشقة.. ثم سمعت اصطفاق الباب.

# ضراط في المظاهرة

كنت في بيت قديم وأرى نخلة من النافذة خلفها الشمس. جاء صاحب البيت وسحبني برفق من يدي. جلسنا على مائدة الطعام وكان الرجل حريصًا على أن يوفر لي الملعقة وعلبة الكولا.. ثم غرف بنفسه في طبقي كبشة أرز وقطعة لحم بالعظم.

بدا بانحناءة كتفيه شديد الشبه بأبي لكنه ليس أبي. لا أدري وجه الشبه بينهما. ربما هذا الطول الفارع.. ربما هذا المزيج من المكر والخجل في نظراته المواربة. أردت أن أقول له إنك تشبه أبي لكنني اكتفيت بتناول طعامي صامتًا. كنت أراقبه وهو يأكل بيده.

سألني:

- "أنت متأكد؟".

- "متأكد".

بعد تناول الطعام صافحني وقال لي:

- "لا تتأخر".

حملت حقيبتي وخرجت. عندما كنت معه في البيت كانت شمس الظهيرة ساطعة، لكن بعدما خرجت أصبح الجو رماديًا وشعرت بلسعة برد خفيفة وأنا أسير ناحية محطة القطار. الضباب الكثيف يحول دون رؤية أي شيء. سكون تام باستثناء دوي القطار وهو يقترب من المحطة.

جلست في مقابل سيدة تلفُّ رأسها بشال أسود. كان وجهها حليبيًا مستديرًا ولديها شامة أعلى الخد الأيمن. تشبه جارتنا بائعة الخضار لكنها ليست هي. أزاحت طرف الشال عن فمها وقالت:

- "ربنا يوصلك بالسلامة".

وقبل أن أرد عليها جاء الرجل الذي يشبه أبي وجلس إلى جوارها وهو يبتسم لي كأننا قد تواطأنا على سر.

ولا أدري لماذا أصرت المرأة أن تعطيني ربطة جرجير من القفص الذي كانت تحمله، قبل أن تغادر برفقة الرجل! ولا لماذا وضعت ربطة الجرجير في جيب الجاكيت وليس في حقيبتي التي كنت أحملها على كتفي.

وصلت إلى كليتي. هذه هي دار العلوم كما أعرفها. النوافذ الطويلة والممرات الواسعة وألواح الرخام البنية المنقوشة. مازالت الحقيبة على كتفي وحزمة الجرجير في جيبي، ونادى عليّ زميلنا منصور بصوته الجهوري:

- جاهز للمظاهرة يا زميل؟

- جاهز.

بدأ الزملاء يهبطون السلالم من الطوابق العليا باتجاه مكتب العميد. ووجَّه إلينا منصور تعليماته بأننا سننطلق نحو قبة جامعة القاهرة بعد اكتمال العدد.

كان يسير بمحاذاتنا ويتأكد من تشبيك أيدينا. كل أربعة زملاء يشبّكون أيديهم بجوار بعضهم البعض.. خليط ضخم من الشباب القادم من الأرياف والأحياء الفقيرة في معظمه..هكذا يبدون من وجوههم وملابسهم ورائحة عرقهم.

ملأنا طرقات الكلية ثم سمعنا دبدبة عسكرية في الصفوف الأولى بدأت تصل إلينا مثل موجة. الجميع كان يدبدب بأرجله في نفس التوقيت.. مارش دون موسيقى.. ومع عنف دبدبة الأقدام خرج الموظفون من مكاتبهم يراقبون ما يجري.. أما أساتذتنا الأجلاء فأطلوا علينا من مكاتبهم قبل أن يغلقوا أبوابها.

لا أدري ماذا كان سبب المظاهرة.. لكن كان هناك حوارات جانبية وإصرار على أن هدفنا هو تعطيل الدراسة. وهتف أحدهم بصوت عالٍ وردد المئات خلفه:

"خيبر خيبر يا يهود.. جيش محمد سوف يعود"

لم أهتف معهم، وسمعت صوت منصور من ميكرفون صغير كان في يده ينبه علينا بتأجيل الهتافات إلى حين الخروج من حرم الكلية.

كنت أقف مرتبكًا أشبِّك يدي مع زميلين لا أعرفهما، وأشعر بتخمة في معدتي تمنعني من الدبدبة بقوة مثلهما، وغصبًا عني ضرطت لكن صوت الضراط تاه في أصوات الدبدبة. ولم تمر سوى ثوانٍ حتى سمعت زميلنا في الصف الذي يتقدمنا يصيح:

- "في واحد معانا ضارب كشري ع الصبح".

أفلتُّ يدي مسرعًا من الزميلين وغادرت إلى الصفوف الخلفية. كنتُ أشعر بدوار خفيف من قوة الدبدبة التي تدوي في أذني. لا أعرف كيف أشبِّك يدي

وألصق جسمي بجسم إنسان آخر لا أعرفه، ولا يعني لي أي شيء! وللأسف ضرطت مرة أخرى، فصاح زميلنا:

- "من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني" حديث شريف

خمَّنت أنه سمع صوت الضراط لأنه كان يقف معنا في نفس الصف. وبدأ جسمي يتعرق بغزارة إلى أن سقطت على الأرض.

أفقت على يد منصور وهو يضربني ضربات خفيفة على خديّ، وبجواره زميل آخر كان يشممني ربطة الجرجير.

# قطعان الليل الهائمة

رأيتها تمشي في الليل، امرأة بُنية.. بنية العينين.. بنية الشعر والحذاء وطلاء الوجه. سألتها متودداً مبتسماً، وليتني ما سألتها:

ـ «ماذا تفعلين؟»

ابتسمتْ وقالت:

ـ «أسوق قطعان الليل الهائمة»

ـ «وأين هي؟!»

ـ «لا أحد يراها غيري».

ناولتني تفاحة مرة المذاق وفجأة مالت بطرف عينها نحوي.. فرأيت رعب العالم كله في عينها الذهبية القاتمة.. قذفتُ التفاحة وهرولت مبتعداً، لاهثاً.

ما الذي ورطني فيها؟ سؤالي أم ابتسامتها؟

أجري وحدي في عتمة لا أول لها ولا آخر، أتخيلها تقود قطعان كائنات سوداء، وغيوماً قاتمة، وظلالاً وأشباحاً وأصواتاً حادة مذعورة. كان لصوتها البطيء رنين عميق ينتهي بخشونة مثل أصوات مدمني الكحول.

كنتُ مرعوباً، وأنا أصعد أول مبنى لاح لي في العتمة.. سلالم وراء سلالم، رحت أقفز فوقها، حتى بلغت السطح فرأيتها واقفة في انتظاري تحدق فيّ.

فقط كانت تحدق فيّ بعينيها البنيتين.

ـ «ماذا تريدين مني؟»

ـ «ابتسامتك وعدتني؟!»

كانت عارية الساقين، ترتدي جورباً بنيًّا شفافاً، على معطف جلدي طويل، وحذاء بنيًّا عالي الكعب. اشتهيتها.. كنت خائفاً وضعيفاً حين اشتهيت تناسق ساقيها وهي تدنو مني.. كأنها تقرأني. تقرأ كل رغبة آثمة في أعماقي.

صرخت وجريت.. وهي تطاردني أينما ذهبت.. حتى الفتاة الطيبة التي لاحت لي في محطة الباص وأرشدتني إلى الطريق الذي ظننته طريقي.. بعدما شكرتها وابتعدت مسرعاً، التفت فإذا بملامحها تتحول.. اللون البني يملأ عينيها وحجابها الأبيض يتحول إلى شعر بُني ناعم يسخر مني.

تعرف أين سأمضي ومتى سأصل، هناك أجدها واقفة في انتظاري.. ليست شبحاً.. ليست آدمية.. بل غائمة بين بين.

ـ «ماذا تريدين مني؟»

ـ «تعال أخفيك.. أنقذك من الليل»

أجري في عتمة شاسعة.. كل الأماكن والمعالم تختفي أمام عيني.. أظل أدور وأدور بلا طريق.. لا أحد يظهر لي سواها.. كل الأقنعة التي ظهرت لي لم

تكن سوى لعبة تخدعني بها.. هي التي اخترعت لي المبنى والسلم ومحطة الباص والطريق وفتنة ساقيها.

المرأة التي تسوق قطعان الليل الهائمة تعرف ضعفي العميق وحيرتي.. كل جملة كنتُ أميز بها الأشياء في رأسي، هي من كانت تهمس بها. تمنحني الكلمة وتنسفها.. تسكنني من الداخل، تحاصرني من الخارج.

ـ «تعال.. أنت بُني مثلي فلماذا تقاوح؟! ألن تستسلم؟ تعال».

فردت لي ذراعيها العاريتين بعدما أسقطت معطفها عن كتفيها، فانتبهت إلى وشم أفعى بين ثدييها. كنتُ أسمع هدير موج البحر وراء ظهرها. دنوت وجلاً مرعوباً.. دنوت كي ألتصق بها إلى الأبد وأنهي كل هذا الخوف والرعب والقلق والحيرة في داخلي. ضممتها بكل عنفي وغضبي ورغبتي ويأسي.. اندفعنا بجسدينا الملتصقين في عمق الصمت والظلام. استسلمتُ عاجزًا عن تحريك يديّ وضمها نحوي من أسفل ظهرها. حين نهضتْ قالت بصوتها الخشن المشروخ:

ـ «أولادك سيتيهون في الليل مثلك».

في لمح البصر، رأيتُ عشرات النسخ البنية مني.. تتكاثر حولي.

أشارت إليّ:

ـ «ألن تقود قطيعك؟»

قبل أن أجيب، أعطتني ظهرها وانقلبت إلى عنكبوت عملاقة راحت تتسلق جدار محطة الباص.

# ابتسامة بوذا

سمعت بكاء أمي المكتوم وصراخ أبي وهو يضربها في الغرفة المغلقة. وبعد دقائق خرجتْ متورمة الخد وسحبتني بسرعة من يدي إلى بيت جدتي. قضينا ليلتنا، أمي تبكي وأنا أطبطب عليها. لم أخبرها أنني قررت قتل أبي. في الصباح أعادتنا الجدة وهي صامتة لا تتكلم.. إلى بيت أبي.

رآني أبي حزينًا فابتسم وطلب مني أن أتمنى أي هدية.. طلبتُ تمثال بوذا مبتسمًا، فاشترى لي أبي رأس بوذا بني اللون. كانت ملامحه منحوتة وغائرة على الجهات الأربع للرأس.. باكيًا ثم عابسًا ثم مبتسمًا ثم ضاحكًا.. فتعودت أن أدير وجهه ناحيتي حسب مزاج يومي.

وكلما رآني أبي حزينًا كان يدعوني لتمني أي هدية. وبهذه الرشوة الصغيرة أصبح لدي كرة متوسطة مقضومة على شكل تفاحة أبل، ودُمى على هيئة: بارني وسوبرمان وباتمان وسبايدر مان. كنت أقوم برصّها كلها على طريقة قطع البولينج وأصوب عليها تفاحة أبل.

لسنوات، لم أكن أفعل شيئاً محدداً عدا رص الدمى بجوار بعضها ثم تصويب كرة آبل بقوة كي أستمتع بها وهي تسقط. ثم أرى خلفي بوذا يبتسم لي أو يعبس في وجهي إذا أخفقت.

كنت أختبر صلابة أكثر دمية ستحتمل ضربة الكرة، وكنت أرتدي التيشرت الأبيض وعليه شعار Google. كل هذه الأشياء اشتراها لي أبي في مرات زعلي الكثيرة، وكلها باركها بوذا مبتسمًا.

كان أبي يحاول دائمًا أن يفرحني. لكنني كنتُ حزينًا منذ رأيته يضرب أمي. ولم أعد أدري هل أنا الذي أدير وجه بوذا حسب مزاجي؟ أم بوذا نفسه هو الذي يغير ملامحه فرحًا وحزنًا كي يخبرني برسالة ما؟

وكلما اقترح أبي عليّ أن نجلس ونتكلم معًا كنتُ أفضل مشاهدة فيلم «هاري بوتر وكأس النار» على جهاز الجلاكسي تاب أو أي جزء آخر من السلسلة رغم أنني شاهدتها كلها أكثر من مرة.

بعد الفرجة على هاري بوتر كنتُ أغلق عليّ غرفتي وأقوم بكل التدريبات السحرية التي كان يقوم بها هاري.. أرتدي نظارتي ثلاثية الأبعاد والعباءة السوداء وأمد عصا السحر الخاصة بي إلى الأمام. العباءة والعصا هما آخر هدية اشتراها لي أبي. وشيئًا فشيئًا أصبحت أشير بالعصا بقوة فتتجسد أمامي أشياء وألعاب لم يشترها لي أبي.. ولم يسألني من أين حصلت عليها.

كانت العصا السحرية تضيف لي المزيد من الدمى والأشياء في أي وقت فلم أعد بحاجة إلى هدايا الرجل الذي قررت أن أقتله. وكانت قد مرت سنوات طويلة جدًا على المرة الوحيدة التي رأيته فيها وهو يضرب أمي.. مع ذلك، وبلمسة من عصاي السحرية، حولت أبي إلى «الجولوم سميجل» بطل فيلم «سيد الخواتم». أصبح منظره بشعًا وذليلًا أكثر مما تصورت.

رأيته ينظر إلي بعينين زجاجيتين لا تخفيان الكراهية والخبث، فلم أشعر بأي تأنيب ضمير خصوصًا أنني التفت إلى بوذا فرأيته ضاحكًا من هيئة أبي المسخوط.

ولكي لا يظل أبي يواجهني بنظرات «سميجل» الذليلة الخائنة، حبسته في المطبخ في قفص «سقراط» ببغائي الذي مات قبل شهر حين عاقبه أبي بحرمانه من الأكل.. أما أمي فسحرتها إلى «سنو وايت».

بعد انتهائي من تلك المهمة، تذكرت بيتزا البيبروني التي اشترتها لي أمي للغداء. يمكنني بالطبع، وبلمسة سحرية بسيطة، أن أحول بيتزا البيبروني الباردة إلى وجبة سوشي حارة ألتهمها فيما تباركني صورة جيفارا المعلقة منذ سنوات طويلة على جدار غرفتي، بالباريه والسيجار واللحية المميزة.. على الجدار المقابل مجسم لقبلة من شفتي مارلين مونرو. الطريف أنني عندما وضعت بوذا على رف بجوار صورة جيفارا رأيته عابسًا، وعندما نقلته بجوار قبلة مارلين مونرو أصبح ضاحكًا.

أستطيع طبعاً بعصا هاري بوتر أن أجعل فم مارلين مونرو يتحرك من مكانه ويقبِّل جيفارا في خده الأيسر أو حتى يقبل بوذا نفسه. بالتأكيد سأستمتع برد فعل جيفارا وهو يتخلى عن نظرته الصارمة ويضع شفتي مارلين مونرو على شفتيه بدلًا من السيجار. لكنني لا أعرف ماذا سيكون رد فعل بوذا إذا قبَّلته مارلين مونرو.

الآن، وبعدما أخذت السيجار من يد جيفارا اليمنى، اكتفيت بالاسترخاء وتدخينه. ليس لدي في هذه اللحظة خطط محددة سوى أن أهمس لبوذا الذي يطل عليّ من وراء ظهري.. سأطلب منه أن يُبقي على أبي في هيئة «الجولوم سميجل» إلى الأبد.. وأن يساعد أمي«سنو وايت» في العثور على السعادة مع الأقزام السبعة.

# سهرة مع بجعة

كنت واقفاً أمام موج البحر، في الليل. وحدي تماماً والهواء البارد يصفع وجهي.

كان الموج هادراً. أضواء الشاطئ الشاحبة تزيده غموضاً. لا أدري في أي لحظة رأيتها تلك البجعة التي كانت تطفو وتتمايل فوق الموج. ثم رأيتها تقترب وتخرج من الماء.

عندما وصلت إلى الشاطئ لم تعد بجعة، ولا حتى عروس البحر بذيل سمكة، بل أصبحت فتاة سمراء عاجية.

اقتربت بفستانها المبلل والملتصق بانحناءات جسدها، وهي تنفض الرذاذ عن خصلاتها الخشنة يميناً ويساراً.

ابتسمت لي. ودون كلام سرنا معاً متشابكي اليدين في اتجاه المقهى الوحيد على الشاطئ. كان لدي هذا الشعور بأننا نعرف بعضنا البعض فلا حاجة لكلام.

كان المقهى يبعد عن حافة البحر مائة متر أو أقل. من الداخل لا توجد مقاعد وطاولات، أشبه بشاليه خال من الأثاث. شبان وفتيات كانوا يشربون ويرقصون مع فرقة تعزف موسيقى غربية بجنون.

لن تروق لها تلك الموسيقى الصاخبة. سحبتها من يدها إلى حديقة خلفية وراء المقهى. أثناء التمشية بين أشجار منتظمة على الجانبين كنت متوجساً وأنا أستبقي يدها في يدي.

مر وقت ولم نتبادل كلمة واحدة.

اكتفينا بسماع صوت فايزة أحمد في الراديو، كان يأتي من مكان ما. وفجأة قطعت هي الصمت وقالت:

- «أنا تعذبت وأنا أغني».

ابتسمتْ لإمالة رأسها وهي تعاود نفض الرذاذ عن ضفائرها. استدارت وأشارت نحو البحر فمشينا عائدين إلى هناك. كنت أفكر في جملتها الغامضة التي قالتها: «أنا تعذبت وأنا أغني»!

سبقتني بعدة خطوات وغمست رِجْلها الحافية تداعب الموج الذي يتكسر حول ساقيها. من بعيد تطلعت في عيني ثم لوحت لي بمركب ورقي صغير، كان يبدو مبللاً لكنه مازال متماسكاً.

أشارت لي ألا أتقدم نحوها أكثر. توقفت. سمعت صوتها يضيع في أزيز الهواء وصخب الموج. بالكاد أدركت سؤالها:

- «تعرف المكتوب على المركب؟»

هززت رأسي نافياً.. رفعته أكثر أمام عينيها وهي تقرأ:

- «الحب كالموت.. لا يجعلنا مثلما كنا».

ثم غادرت ودخلت البحر.

راحت تغوص في الماء عارية لا يسترها شيء، ثم رأيتها تعود بجعة - كما كانت - وسمعت صدى أغنية حزينة مبهمة، قبل أن تتلاشى عند خط الأفق.

# على باب غزالة

كنتُ أعيش في الطابق الأرضي شبه المعتم وأنظر مثل غيري إلى نور السماء، فرأيت يمامة تلج من نافذة الطابق العلوي المقابل لي. كانت النافذة مضاءة ورأيت بوضوح اليمامة وهي تتحول أمام عيني إلى امرأة.

كأنها حورية من حوريات الجنة.. كانت ترفل عارية وراء النافذة المفتوحة. وعندما انتبهتْ إلى نظراتي التي تخترقها من أسفل، أغلقت النافذة.

أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى من الشارع، فرأيت غزالة صغيرة تدلف مسرعة من باب البيت المجاور. قلتُ في نفسي: «إذا كانت اليمامة تحولت إلى حورية من حور الجنة.. فمن يدري ألا تتحول الغزالة أيضاً إلى حورية؟»

أسرعت وأنا أتلفت حولي، ودخلت خلسة وراءها من الباب الذي تركته موارباً. كنتُ أتحسس خطواتي كي لا تنتبه الغزالة، وأيضاً أخشى أن تراني اليمامة من نافذة الطابق العلوي وأنا أتسلل إلى بيت آخر!

بخفة لا يمكن وصفها وجدتني داخل صالة معتمة وعلى بُعْد ثلاث أو أربع خطوات من باب يتسرب منه ضوء.

ما توقعته كان صحيحاً. رأيت الغزالة وقد تحولت إلى امرأة حسناء تجلس في الفراش وظهرها العاري للباب. كان شعرها الذهبي القاتم مثل أجمة برية لا يكاد يغطي عري كتفيها وظهرها.

جسدها كأنه منحوت من مرمر، لامع ومصقول. أحسست بنعومة الانحناءات دون أن ألمسه، كأنه لا عظم فيه.. كان جسدها، ولا شيء آخر، هو ما يعكس الضوء الخفيف الذي يتسرب إلى عتمة الصالة. ضوء جسدها هو ما كان يسمح لي برؤيتها.

لم تلتفت نحوي، لكنها أشارت بذراعها الملفوفة مثل مغزل، نحو كتاب عتيق على كرسي الزينة، وراء الباب، وقالت بصوت محايد:

ـ «خذه وارحل».

اقتربت وجلاً. حملت الكتاب بين يدي، وهي لم تدع لي أي فرصة كي أرى عينيها. قالت:

ـ «قبل أن تأتي.. اقرأ وتعلم».

ـ «ما هذا؟!»

ـ «العاشق لا يسأل».

مسحتُ بكف يدي على الغلاف وقرأت العنوان:

ـ «كتاب العشق».

ثم رفعت بصري نحو الغزالة التي تحولت إلى امرأة، فرأيتها في طرفة عين، قد تحولت هذه المرة إلى يمامة وطارت من النافذة المفتوحة.

# تهريب جثة

لا أدري مما كنا نهرب!

كنتُ في المطار برفقة جدي بشعره الفضي الأشعث ولحيته ناصعة البياض وبشرته المحمرة قليلاً.

حركة البشر وعربات الحقائب والأضواء الساطعة، لا توحي بأي خطر. نفس الإيقاع المعتاد في أي مطار في العالم، الشاشات الفسفورية تومض بمواعيد الرحلات والصوت الآلي لامرأة المطار يدعو ركاب كل رحلة إلى التوجه إلى بوابة كذا.. لكننا ـ أنا وجدّي ـ كنا نجري في صالة المطار خائفين ولم نمر على بوابة مغادرة ولا شباك ختم جواز السفر.

وقفنا في النهاية أمام مجموعة كبيرة من الحقائب والصناديق والكراتين المغلفة بشمع شفاف. لمحت جدي يدفع رشوة مجزية للعامل الذي فتح لنا الصندوق الخشبي العتيق وأشار إلينا بما معناه أن أمامنا خمس دقائق للاستلقاء داخل الصندوق.

نام جدي أولاً، مقوس الظهر قليلاً، ثم مد يديه نحوي كي أصعد وأنام في حضنه الدافئ.

بعدما أغلق العامل الصندوق علينا بثلاثة أقفال، سمعت تكاتها، وقبيل ثوان من إقلاع الطائرة انطلقت رصاصة مدوية اخترقت جدار الصندوق واستقرت في قلبي.

أصبحت ميتاً. لكن وعيي استمر منتبهاً بطريقة ما. كنتُ أفكر.. من يكون هذا الذي أطلق الرصاصة.. وهو لا يراني ولا يعرفني؟! لماذا صوبها على هذا الصندوق تحديداً؟ أي براعة تلك التي جعلت رصاصته تستقر في قلبي مباشرة؟ أدركت أنني لن يتاح لي أن أعيش كل هذه السنوات الطويلة التي عاشها جدي.

أحسست بريبة وارتباك جدي في عتمة الصندوق بسبب سكون جسدي التام. وكيف مد يده يتلمس البلل أسفل جنبي الأيسر. قطرات دمي راحت تنز من الثقب الذي أحدثته الرصاصة في الصندوق وتتسرب عبر سقف الطائرة إلى أن سقطت في حجر راكبة وصلني صراخها وصياحها بلغة لا أفهمها.

مع الجلبة غير المتوقعة التي أحدثتها الراكبة المفزوعة وخيط الدم الذي لا يتوقف قرر كابتن الطائرة الهبوط اضطراريًا في أقرب مطار. هناك أتى أفراد الشرطة بمصابيحهم الصغيرة والكلاب البوليسية. بالطبع لم يكونوا بحاجة إلى كل هذه الاستعدادات القصوى للعثور على صندوق ترقد فيه جثة طفل بين ذراعي جد غزيب الأطوار!

بعد فض الأقفال الثلاثة بالقوة وفتح غطاء الصندوق، تصرف أفراد الشرطة بلا أدنى تعاطف معنا، ورأيتهم يركلون جدي بين ساقيه كأنه من أطلق الرصاص عليّ. أحدهم أصر على ضرورة استجوابي، رغم أنني كنتُ ميتاً ولا أتنفس.

لمحت جدي يمشي أمام فوهات بنادق الجنود رافعاً يديه وعلى وجهه نفس تعبيرات المجرمين لحظة القبض عليهم. كان أقرب إلى المجانين بشعره الطويل المبعثر؟ وفجأة اندفع مهرولاً وهو يصيح: «قتلة.. قتلة.. قتلة»!

الغريب أنهم لم يطلقوا الرصاص عليه بل تركوه يجري إلى أن اختفى، وكانوا يقهقهون من هيئته الهزلية المذعورة.

قلتُ في سري:

ـ «جدي ضيعني وهرب!».

رفعني الشرطي ملفوفاً في قماش أبيض، كي يراني رئيسه:

ـ «قبضنا على الجثة يا أفندم».

تفحص رئيس الشرطة وجهي النائم عن قرب وتم التقاط أكثر من صورة لوجهي الميت من زوايا مختلفة قبل أن يصدر أمره بإعادة جثتي إلى المطار الذي جئت منه، على ألا يُسمح لي بالسفر مرة أخرى، إلا بطريقة شرعية.

# موعد الإقلاع

كنتُ منشغلاً بالآخرين في الرحلة، أدور عليهم: هل أخذت حقيبتك التي فوق الدولاب؟.. تأكدي يا سيدتي أنك لم تنسي عقد اللؤلؤ الذي ورثته عن والدتك؟.. أيها الشاب الوسيم.. هل أخذت كل أشيائك؟»

ـ «وما شأنك أنت؟!».

ـ «لا تنس.. نحن زملاء رحلة واحدة».

وهكذا كنتُ أدور على زملاء الرحلة.. أطمئن عليهم.. أداعبهم.. أتأكد أنهم حملوا جميع أمتعتهم.. معظم الوجوه كانت تبدو لي مألوفة.. أتذكر حواراً حميماً دار بيننا في محطة الانتظار.. أو قصة مؤثرة رواها لي أحدهم وهو يضحك أثناء تناولنا وجبة العشاء.. ما أثار استغرابي أن بعض الوجوه بدت غريبة عني.. لم أرها من قبل على الإطلاق، ولا أعرف كيف تزاملنا كل هذا الوقت في الرحلة ذاتها دون أن نلتقي!

بدا المكان، ونحن نستعد للمغادرة، موحشاً أشبه بأطلال. ساحات خاوية وملاعب تُصفِّر فيها الريح.. أبنية عتيقة متداعية.. وكان الجميع يتحركون

بحقائبهم وأمتعتهم في اتجاه واحِد.. نحو أزيز الطائرة المدوي، وإن كنتُ لا أرى جسم الطائرة في هذه اللحظة.

جاءت زوجتي مسرعة وهي تلوِّح بيدها وتلومني:

ـ «هيا بنا.. تأخرنا على موعد الإقلاع».

قلت لها:

ـ «دعيني أولاً أطمئن على زملاء الرحلة.. كيف نغادر ونتركهم؟!».

ـ «يا رجل وما شأننا بهم؟!».

ـ «تخيلي.. أحدهم نسي حذاءه أمام دورة المياه!»

ـ «قلت لك تأخرنا وأنت تحدثني عن حذاء قديم تخلص منه صاحبه!»

مشيت مع زوجتي عدة خطوات وأنا أرمق حقيبتها المنبعجة فوق ظهرها مثل سنام الجمل.. وفجأة التفتت نحوي مستنكرة:

ـ «انظر.. كيف ستركب الطائرة بهذه الملابس الرثة؟ هيا اذهب واستحم وسأعود إليك

بملابس جديدة»

في ثوان اختفت زوجتي، ووجدتني أمام باب حمام متهالك.. بلا سقف.. حمام غريب مفتوح على السماء.. بدأت أشعر بالتوتر لأن موعد الإقلاع يقترب.. وزوجتي ستأتي منفعلة جدًا وتلومني لأنني لم أستحم.. أيضاً رغبتي في إفراغ ما في أمعائي كانت أقوى من رغبتي في الاستحمام. الإنسان يريح معدته أولاً قبل أن يفكر في إنعاش جسده بالماء الدافئ.

عندما هممت بالجلوس على قعدة الحمام المتهالك انهمر عليّ مطر عنيف من السقف المفتوح. من رابع المستحيلات إتمام ما جئت من أجله في مثل هذا

الجو، فهطول المطر الشديد جعل عضلة المستقيم تنقبض بشدة وتتجمد من البرودة. من المستحيل أيضاً أن أركب الطائرة بملابسي وهي مبلولة وملوثة.

أسرعت أبحث عن حمام آخر ونبضات قلبي ترتفع. ما يطمئنني أنني مازلت أسمع أزيز الطائرة.. وصلت إلى منطقة قرب شاطئ البحر ومن فوق تبة عالية لمحت أكثر من موقع مفتوح مخصص للاستحمام السريع.. وأمام كل منها برج إنقاذ ترفرف فوقه راية سوداء كبيرة مطبوع عليها جمجمة القراصنة. كانت عشرات النساء يستلقين على بطونهن عاريات وشبه مدفونات في الرمل.. أعداد لا حصر لها من النساء بأحجامهن المختلفة.. لفت نظري أن أكثر من امرأة أخفت جسدها تمامًا في الرمل فلا تظهر منها سوى قبة مؤخرتها. وفي الفراغات بين النساء المستلقيات كانت هناك ساعات دائرية كبيرة تتدحرج على الأرض دون أن تتصادم.. نساء وساعات!

هبطت التبة سريعًا وفي نيتي الاستحمام على الشاطئ وتأمل أكبر عدد ممكن من أرداف النساء العاريات قبل أن تطلق الطائرة نداءها الأخير.. اتجهت إلى هناك فاكتشفت سوراً بارتفاع خمسة أمتار لا أعرف كيف لم يظهر لي وأنا أكتشف المنطقة من فوق التبة.. جربت القفز والإمساك بحافته لكنني عجزت عن تسلقه فعدت مسرعاً، تقهرني رغبات متناقضة وشعور خفيف بالانتعاظ.

«آه يا قلبي.. آه يا قلبي».. وجدتني أردد هذا المقطع من أغنية شعبية مبتذلة لا أتذكر مطربها.. ظللت أرددها إلى أن صعدت بناية «السوق الحرة» المكونة من ثلاثة طوابق. في الطابق الأعلى رأيت حماماً أرضيته مليئة بالوحل والنتن.. خضت فيها غير مبالٍ إلى أن وصلت إلى قعدة الحمام الملوثة بكل شيء.. قبل أن أجلس عليها رأيتها مفتوحة ويمكن من خلالها رؤية طوابق المبنى الثلاثة.. كيف أقوم بعملية إخراج يتحمل تبعاتها كل زبائن «السوق الحرة»؟!

أثناء ذلك وقف على باب الحمام رجل غامض يرتدي نظارة سوداء كمخبر سري. كان لا يشبه أحداً ممن كانوا معنا في رحلتنا. بدأ في استفزازي بأسئلته على طريقة المحققين:

- «من أنت؟».

- «هل سألتك عن اسمك كي تسألني عن اسمي؟!»

- «ماذا تفعل هنا؟»

- «كما ترى!»

- «معك جواز سفر؟»

لا أدري ماذا حدث بعد ذلك. أظنه قال لي ما معناه إن رحلتي انتهت ووجودي هنا أصبح غير مرغوب فيه.. وعندما سمعت أزيز الطائرة مرة أخرى هرولت في اتجاه الصوت.. هذه المرة كانت رغبتي في عدم التأخر عن موعد الإقلاع أقوى من أي هاجس آخر.

# حامل الكتاب

كنتُ نائماً ودافئًا تحت البطانية. أخفي جسدي كله في عتمتها. كنت مغمض العينين. أعي أنني نائم وأعي أيضاً هزيز الريح العاصفة في البعيد.. صرير ودويٌّ لأشياء غامضة كانت ترتطم حولي. لا أعرف كيف أحسست بثقل كائن له ظل أسود.. غيمة سوداء لها أذرع كثيرة كانت تنقض عليّ وتكتم أنفاسي تحت البطانية. مغمض العينين لكنني كنت أرى وعندما صرخت بأعلى صوتي تلاشى ثقل ذلك الشبح واستعدت إدراكي بأنني نائم في فراشي ومغطى بالبطانية.. ثم سرعان ما نمت وشعرت بضغط ذلك الكائن الأسود.. مرة أخرى كان يحاول أن يكتم أنفاسي.. وشيئاً فشيئاً أدركت أن ثقلاً ما، كان جاثماً على صدري. أظنه كعب كتاب ثقيل كان يضغط على عظام القفص الصدري، ووجدتني أهتف في داخلي:

ـ «هذا كتابي!»

كنتُ أشعر به مفتوحاً على صفحة ما. هل هي من الماضي الذي عشتُه أم من المستقبل الذي مازال محجوباً عني؟ حتماً إذا رفعت رأسي قليلاً وقلّبت في صفحاته سأعرف المكتوب كله.

أين ومتى وكيف ستكون النهاية؟

كل الأسئلة العالقة سأعثر على إجابتها في الصفحة الأخيرة. لحظة نادرة ومضيئة. سأنال بصيرتي الآن، كاملة غير منقوصة، فقط إذا استطعت تقليب صفحات كتابي وقراءة ما فيه.

رحتُ أردد: «فبصرك اليوم حديد» وأحاول مراراً أن أعطي أمراً إلى يدي الملتصقة في جنبي:

- «تحركي.. تحركي».

لو فقط أمسكت حافة الكتاب بإصبعين.. لو نجحت في تقليب ورقة واحدة.. إذا قلبته إلى الوراء سأتأكد أنه كتابي. وإذا قلبته إلى الأمام سأعرف ما مصيري. لكن يدي لا تطاوعني، أعصابي هاربة بما لا يسمح لأعضاء جسدي بتنفيذ أي أمر. كمن يريد إضاءة الأنوار دون وصلات الكهرباء.

- «هيا، تحركي».

كنت أخاطب يدي وأشجعها:

- «هذا كتابي»!

اللعنة! كتابي جاثم على صدري ولا أقدر على قراءة سطر واحد منه! على بُعْد شبر من عيني ولا أستطيع أن أعرف المخبوء فيه! انتهت كل محاولات تحريك يدي إلى الفشل، فاستسلمت لصفير الريح وصرير ودوي أشياء هائلة، ومجهولة.. إلى أن انتبهت إلى الكائن الظل يلملم أذرعه الأخطبوطية.. رأيته وهو يرفع الكتاب الجاثم على صدري.. ثم طواه تحت إبطه وغادر الغرفة.

# بحيرة الطين

وجدتهم يندفعون بحماس إلى حوض السباحة وينقسمون سريعاً إلى فريقين.. أحمر وأزرق.. فاندفعت معهم.

لم أكن أعرف قواعد اللعبة عدا أنهم يتلقفون كرة صفراء بخطوط سوداء ويقذفونها في مرمى الخصم. كانوا يثيرون الرذاذ في كل اتجاه. حركاتهم مضحكة.. طائشة.

نادى عليّ كابتن الفريق الأقل عددًا:

- «تلعب معنا؟»

« لا أعرف القواعد!»

- «ستعرفها بالممارسة»

بالتأكيد سيكونون ممتنين لي بعد انضمامي إلى الفريق الأقل عدداً.

كنتُ مرعوباً من المياه. بدت قاتمة وأكثر عمقاً مما تصورت. ركزتُ كل جهدي أن أجيد لعبتين في وقت واحد: السباحة وقذف الكرة، رغم أن مهاراتي فيهما كانت متواضعة.

آثرت البقاء بالقرب من مرمى فريقي. وهكذا وجدتني واقفاً، وقتاً طويلاً في المياه الضحلة، بينما إثارة المباراة كلها كانت أمامي في المياه العميقة.

أخيراً قاومت خوفي وانطلقت إلى الأمام. للوهلة الأولى وبسبب توتري

الشديد كدتُ أغرق. شيئاً فشيئاً تحرر جسدي من ثقله وراح يسبح بخفة سمكة أبو سيف. بدأت أبحث لنفسي عن مكانة متقدمة في الخطوط الهجومية، وواصلت المباراة بعزيمة أقوى وسط تشجيع بعض زملائي:

«العب يا أبو سيف.. حلوة يا أبو سيف».

أحرزت الهدف الثاني لفريقي، وهللت ظنًا مني أنه هدف التعادل. فوجئت بصوت لا أتبين مصدره، ينبهني أن النتيجة ليست تعادلاً، وليست اثنين مقابل اثنين بل عشرة مقابل ثمانية!

معقول! أين كنتُ عندما أُحرزت هذه الأهداف كلها؟! هل كنت ألعبُ مباراة أخرى في رأسي غير المباراة التي تجري أمام عيني؟ كيف يُعقل أن أشارك في مباراة كل هذا الوقت وأنا لا أعرف نتيجتها؟!

لا أدري ما الخطأ الفادح الذي دفع الفريق الأحمر لمطاردة الفريق الأزرق! ولا كيف ظهرت العصي والسكاكين من مخابئها فجأة! رحنا نجري وهم يجرون وراءنا.. حتى هذه اللحظة لا أعرف هل كنتُ ألعب مع الفريق المنتصر أم مع الفريق المهزوم؟! قفزنا فوق درجات رخامية عريضة ثم عبرنا ساحة خالية خلف حوض السباحة.. كنا نهرول مرعوبين.. فوضى وصراخ.. وآخر صوت سمعته لإنسان كان يصرخ فيّ: «لا تنظر وراءك. لا تنظر وراءك»!

كنا مندفعين إلى الأمام بكل قوة. شيء غامض في داخلي يحثني ألا أتوقف.. حتى بعدما لحقوا بي.. بل وسبقني بعضهم.

ظللنا نجري ونجري.. وانضم إلينا آخرون لا نعرفهم.. بعضهم كانوا شبه عرايا! وأحيانًا كنت أرى وجوه أقاربي وجيراني وأصدقائي وهم يجرون حولي.

وصلنا أرضًا تقطعها حواجز وعوارض كثيرة كتلك التي في سباق الخيل، فراح كل منا يركز في الحواجز التي تصادفه.. بعضنا كان يسقط عارضة واحدة ثم يقفز فوقها، والبعض الآخر كان يصطدم بالعوارض كلها ويقع أسفل منها..

ذوو الأجسام الفارعة نجحوا في التعلق بأحبال متدلية وقفزوا إلى مسافات مجهولة فلم نرهم بعد ذلك.

خرجنا من مضمار العوارض الخشبية والإسمنتية، إلى طريق جبلي متعرج، وواجهتنا حواجز غامضة وألواح زجاجية رغم رعبنا منها اكتشفنا أنها مجرد مشمع بلاستيك يمكن اختراقه بسهولة. كانت تتاح لنا وسائل مساعدة، على الأرجح لا نعرف كيف نستعملها.. أو لا نجد الوقت الكافي لاستعمالها.. وشيئاً فشيئاً دخلنا في منطقة أفخاخ خادعة لاصطيادنا.. حفر مغطاة بورق الشجر، سلك شائك، وجذوع شجر مدببة تدمي أرجلنا، وكنتُ أسمع عواء قطيع من الذئاب تعدو وراءنا، ومئات البوم ميتة ومتناثرة على الأرض.

بمرور الوقت، صار تناقصنا أمراً مألوفاً، ولم يعد هناك أي تمييز لملابسنا.. لا أحمر ولا أزرق.. رغم الإعياء واللهاث، ضاعفنا سرعتنا عندما سمعنا دوي انفجار قنبلة بالقرب منا.. كان الصوت مرعباً ومخيفاً.. قعقعة صقور لا نراها في السماء.. مسامير وشظايا جمر تحت رماد وهياكل عظمية.. هياكل بشر وهياكل سيارات.. متناثرة كلها بجوار أشواك «عمة القاضي» التي أدمت أرجلنا.

صرنا عراة وفي حالة مزرية. وجوهنا التي بدت لنا - في لحظة معينة - مألوفة.. اغتربت عنا، على نحو مخيف خصوصاً بعدما مررنا بمستنقعات مياه آسنة، لطخت أجسامنا وبالكاد أفلتنا من الغرق فيها.

كنا نجري ونجري. وبقوة داخلية هائلة وصلنا إلى بحيرة لا حدود لها.. بحيرة من طين لزج ورائحة روث.. لا هي جافة ولا هي تغمرها المياه.. رحنا نغوص فيها بأجسادنا العارية المتعبة.. حيوانات مائية تفقم حولنا في بحيرة الطين لكننا لا نرى هيئتها! لا أحد منا يعرف كيف ولماذا جاء إلى هنا؟! فقط استسلمنا للزوجة ودفء الطين. ومن أعلى دوى صوت هائل.. صوت ليس بشريا.. ناداني: «مرحبًا بك أيها الفائز!».

# فهرس

رقم الإيداع ٢٢٥٢٧ / ٢٠١٥

الترقيم الدولى
978-977- 08 - 1681-3

تعددت تجارب شريف صالح في الإبداع وتنوعت بناتها وموضوعاتها، لكنه في كل موضوعاته ثابت على مبادئ أساسية ثلاث هي التي تصنع عوالمه المدهشة. المبدأ الأول التمسك بفن القصة القصيرة المغدور الذي يتحول عنه معظم الكُتّاب استجابة لسوق النشر، وثانيهما عالم الطفولة ، وثالث المبادئ الأحلام وهباتها اللذيذة. صاحب «شخص صالح للقتل» و«بيضة على الشاطئ» و«مثلث العشق» اختار أن يعلن حفاوته بالأحلام في هذه المجموعة ابتداء من العنوان «دفتر النائم».

تضم المجموعة أربعًا وعشرين قصة قصيرة، بعضها تتناول لحظات من حياة طفل حقيقي أو طفل كهل، وجميعها على صلة بالأحلام؛ حيث اللامنطق والغرابة والمباغتة، في لغة رشيقة ممتعة.

